مكتبة

روايات ALEJANDRO GUILLERMO ROEMMERS

أليخاندرو غييرمو رومرس

عودة الأمير الشابّ

مكتبة 761

ترجمة: نهى أبو عرقوب



مكتبة | 761
سُر مَن قرأ

عودة الأمير الشابّ

EL REGRESO DEL JOVEN PRÍNCIPE
by A.G. Roemmers
copyright © 2011, 2018, by A. G. Roemmers.
c/o Schavelzon Graham Agencia Literaria
www.schavelzongraham.com
Ilustración de portada e interiores: ©*Laurie hastings*
Arabic Language edition published by Al-Ahlia - Jordan 2018



الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail: alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ
: AlAhliaBookstore
: alahlia_bookstore
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

عودة الأمير الشابّ/ رواية أرجنتينيّة
أليخاندرو غييرمو رومرس
الترجمة عن الإسبانيّة: **نهى أبو عرقوب**/ الأردنّ

◆

الطبعة العربية الأولى، 2020
حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، عمان، هاتف 95297109 7 00962



لوحة الغلاف: **لوري هاستنغز** *Laurie Hastings* ©/ الأرجنتين

◆

الصف الضوئي: **إيمان زكريا خطاب**، عمان، هاتف 95349156 7 00962

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: (2020/1/439)
الترقيم الدولي: ISBN 978-9957-39-326-7

مكتبة | 761
سُر مَن قرأ

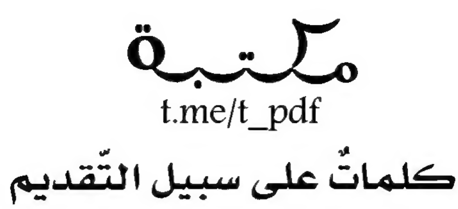
أليخاندرو غييرمو رومرس

عودة الأمير الشابّ

ترجمة: نهى أبو عرقوب







كلماتٌ على سبيل التّقديم

في عالم دمّرته الحرب، وأخذ يفقدُ سريعاً البراءة وهناءة العيش، وضعَ أنطوان دو سانت إكزوبيري، وهو طيّار فرنسيّ جسور، كتابًا بعنوان «الأمير الصغير»، لم يلبث أنْ تحوّلَ إلى رمزٍ عالميّ لهذه القيم المفقودة.

ولعلّ اختفاء سانت إكزوبيري المبكّر، خلال مهمّة استطلاعيّة في البحر الأبيض المتوسط، عائدٌ على الأرجح إلى حزنه وخيبة أمله أمامَ عصرٍ بدا أنه نسيَ بساطة القلب وروح الإنسانِ الجوهريّة، أكثرَ منه إلى عاصفةٍ عدوانيّة.

ولقد عرفتُ -مثل كثيرين غيري ممّن قرأوا «الأمير الصغير»- نقاء رسالته، وحزنتُ حزنَ سانت إكزوبيري حينَ توجّبَ على ذلك الطفل، بعدَ أنْ مسّ شغاف قلبي، أنْ يرجع إلى كويكبه.

ولم أدركْ إلّا بعد زمنٍ طويلٍ أن الكراهيّة وسوء الفهم وغيابَ التضامن، والرؤية المادية للوجود، وغيرها من المخاطرِ، هي ما حالَ بينه وبينَ العيش على كوكبنا.

ولطالما تسألت، مثلَك ربّما، ماذا كان سيحلُّ بهذا الطفل الفريد لو قُيّضَ له الاستمرار في العيش بيْننا. إذن لكيف كانت مراهقتة ؟ وكيف كانَ سيصون نضارةَ قلبه من أنْ تُمسّ؟

حاولتُ لسنواتٍ طوالٍ العثور على إجابات عن هذه الأسئلة، وقد يكونُ ما وجدته منها صالحاً لي وحدي. لكنّها قد تُسهمُ أيضاً -وهذا ما آمله- في إنارةِ الدّرب ولو جزئياً لذلك الطفل الذي يحمله كلٌّ منّا في داخله.

ولهذا أتجرّأ وأكتبُ إليكَ، عزيزي القارئ، في مطلعِ قرنٍ جديد وألفيّة جديدة، وبنظرة لعصرنا أكثرَ إيجابيّة، كي لا أدعك غارقاً في الحزن.

وأشعرُ أنّه ليسَ في وسعي تلبيةُ فضولك إذا كنت تنتظر أن آتيكَ بصورة فوتوغرافية، فأنا منذ أعوامٍ طويلةٍ لا أحملُ معي في أسفاري آلةَ تصويرٍ فوتوغرافيّ أو فيديو، لا سيما حينَ بدأتُ ألاحظُ أنّ أصدقائيَ باتوا شديدي الانشغال بالصّور حتّى أنّهم لم يعودوا يعيرون انتباهاً لقصصي. ومع هذا فقد أرتأيتُ إدراجَ بعض الرسومات كي لا يخطر لك أنّ هذه القصةَ بالغةُ الجديّة. وبعد عدّة محاولاتٍ منّي لم تُرضِ كبيراً ولا صغيراً، قرّرْتُ أن أستعينَ بصديقتي العزيزة لاوري هاستينغز Laurie Hastings لاستعادةِ بعض اللحظات التي أتذكرها بقوّة. لا تجعلْ خطوطَ هذه الرسومات تؤثر في خيالك، فلاوْري لم تكُن يوما في باتاغونيا ولم تقابل الشّابّ الغامض في هذه القصة، لكنّ الرسوماتِ قد تعينكَ على أنْ تَرى عبرَ كلماتي، مثلما استطاع الأمير الصّغير أنْ يرى الخروف عبرَ الصّندوق.

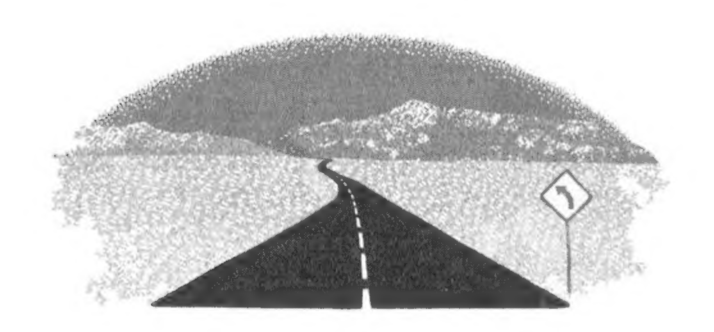
وآمل أيضًا، أيّها القارئ العزيز، أنْ يتّسعَ صدرُكَ لما أدرجته من أفكارٍ وتأمّلاتٍ تولّدت لحظة الحدث، وقد أردتُ أنْ أوليَ وجودها اعتباراً بأنْ أدوّنها مباشرةً.

أمّا بعد، فسأخبرك الآنَ بما حدث، وعلى نحوِ ما جرى بالضّبط.

فإذا كنت تشعر بالوحدة، وكان قلبك نقيًا، وعيناكَ لا تزالان تحتفظان بدهشة الطفل، فلعلّك تكتشف عبرَ قراءة هذه الصفحات أنّ النجوم تبتسم لك من جديدٍ، وأنّك تستطيعُ سماعها كما لو كانت خمسمائة مليونٍ من الأجراس الصغيرةِ تُقرّعُ في آنٍ.

الفصل 1

كنت وحدي في سيّارتي مسافراً عبر طريق منعزلٍ في باتاغونيا، وهي أرض تدين باسمها لقبيلة من السّكان الأصليّين يُزعَمُ أنّهم يشتهرون بأقدامهم بالغةِ الضخامة، وإذا بي أرى على جانب الطريق كُتلةً غريبةَ الشكل. أبطأتُ السيرَ غريزيّاً، فأذهلتني رؤيةُ خصلاتٍ من شعرٍ أشقر تبينُ من تحت بطانيّةٍ زرقاءَ بدا أنّها تُدثّرُ شخصاً ما. أوقفت السيارة، وحينَ غادرتُها، تسمّرتُ دهشةً. هنالك، على بعد مئات الكيلومترات من أقرب قرية، وسْطَ أرضٍ بورٍ لا يُرى فيها بيتٌ واحد ولا سياجٌ ولا شجرة، كانَ شابٌّ يرقدُ بهدوءٍ تامٍّ، وبلا أدنى علامةٍ من قلقٍ على محيّاه البريء.



وما حسبته خطأً بطانيّةً كان في الواقع عباءةً زرقاءَ طويلةً بكتافتيْن، تتبدّى بيْنَ لحظةٍ وأخرى بطانتُها الداخليّة الأرجوانيّةُ كاشفةً عن بنطالٍ أبيض- كالذي يرتديه الفرسان- دُسَّ طرفاه في حذاءٍ لامعٍ من الجلد الأسود.

وقد منحَ ذلك كلّه، مجتمعاً، الفتى هيئةً أميريّة تتنافرُ مع تلك البقعةِ من الأرض. وكان وشاحه قمحيُّ اللّون يتماوجُ منساباً مع نسيم الربيع حتى لا تعودُ تفرّقُ أحياناً بينه وبين خصلات الشعر، ما أضفى على الفتى هيئةً حزينةً شاردةً.

وقفتُ هنالك لحظةً، حيرانَ أمام ما تراءى لي لغزاً يتعذّرُ حلّه. حتّى الريحُ وهي تنحدرُ من الجبال مثيرةً زوابعَ هائلة، كانتْ كما لو أنّها تتقّصدُ تفاديه كي لا تمسّه بغبارها.

وأيقنتُ فوراً أنّه لا يمكنُ لي تركُه ينامُ أعزلَ في وحدتِه تلك، بلا ماء ولا غذاء. وعلى الرغم من أن مظهر ذلك الغريب لم يكن باعثاً على أيّ خوفٍ، فقد غالبتُ نفسي قليلاً كي أدنوَ منه. وبشيء من العناءِ حملته بيْنَ ذراعيّ وأجلسته على المقعد المجاور لي في السيّارة.

ولشدّ ماعجِبتُ لكونه لم يستيقظ، حتّى أنني للحظة خشيتُ أن يكون ميتًا. غيرَ أنّ نبضاً ضعيفاً- لكنّه مع هذا مستقرّ- قد بدّد مخاوفي. وحينَ وضعتُ يده المرتخيةَ ثانيةً على المقعد، خطرَ لي أنّه لولا إدراكي لتأثّري البالغ بصورِ الكائنات المجنّحة، لحسبتُ أنني كنتُ في حضورِ

ملاك هبطَ إلى الأرض. لكنْ سرعان ما تبيّنَ لي أن الفتى كانَ مرهقاً مستنزفَ القوى.

وحينَ استأنفتُ المسير، قضيتُ وقتاً طويلاً أفكّر كيف أنّ الكبارَ، لفرطِ ما يطلقون من تحذيراتٍ حمايةً لنا، يباعدون بيننا وبين الآخرين، حتّى بات لمسُ شخصٍ ما أو النظرُ في عينيْه يثيرُ شعوراً مزعجاً بالتوجّس.

- عطشان- قال الفتى فجأة، وقد أجفلني صوتُه، إذ كدتُ أنسى وجوده كليّاً. ومع أنّه تكلّم بصوتٍ خفيضٍ، فقد كانت نبرته بصفاءِ الماءِ الذي طلب.

في رحلاتٍ طويلةٍ كهذه قد تستغرقُ ثلاثة أيام، كنت دائما ما أحمل معي في السيارة بعض الشراب والطعام، حتّى لا يضطرّني إلى الوقوفِ شيءٌ غيرُ التزوّدِ بالوقود. أعطيته زجاجةً وكوباً من البلاستيك وشطيرةً من اللحم والطماطم ملفوفةً برقاقةِ قصدير. أكل وشرب من دون أنْ ينبس بكلمة. وفيما هو يفعل، امتلأت رأسي بالأسئلة: «من أين أتيت؟»، «كيف وصلتَ إلى ذاك المكان؟»، «وماذا كنت تفعل هنالك، مُمدّداً في قناةٍ بمحاذاةِ الطريق؟» «هل لديك عائلة؟» «أين هي؟» وإلى غير ذلك. وإنّني ما زلتُ إلى اليومِ أتعجبُّ من نفسي كيفَ أستطعتُ- على الرّغم من طبيعتي المتلهّفةِ الفضوليّة والرّاغبةِ دوماً في مساعدةِ الآخرين- أنْ التزام الصمت على مدى تلك الدقائق العشر اللاّنهائيّة، منتظراً أنْ يستجمعَ الشابُّ قواه. أمّا هو، فقد أكل وشربَ بهدوءٍ كما لو كانَ الأمر الأكثرُ طبيعيّةً في العالم أنْ يستلقيَ

المرءُ مهجوراً وسْط بقعةٍ شبه صحراويّةٍ، ثمّ يظهرُ شخصٌ ما ويقدّمُ له شراباً وشطيرةً من لحم.

- شكرا لك- قال بعدَ أنْ فرغ من طعامه، ثمّ عادَ ليتّكىء على النافذة، وكأن هذه الكلمة الوحيدةَ تكفي لتبديد كلّ ما كانَ يساورني من شكوك.

فطنتُ عندها إلى أنني لم أسأله حتّى عن وِجهته. أَما وقد لقيته على الجانب الأيمن من الطريق، فقد افترضتُ أنه كان قاصداً الجنوب، لكنّ أغلبَ الظّنّ أنّه كانَ يحاول الوصول إلى العاصمة الواقعةِ شمالاً.

غريبةٌ حقّاً تلك السهولةُ التي نفترضُ بها أنّ الآخرين لا بدّ سائرون إلى حيثُ نسير.

ولمّا التفتُ إليه ثانيةً، كان الأوان قد فات، إذ وجدته مستسلماً لموجةِ أحلامٍ أخرى حملته بعيداً.

الفصل 2

هل أوقظه؟ كلّا، علينا أنْ نمضيَ قدُماً؛ لا يهمّ إن كان شمالاً أم جنوباً. ضاعفتُ سرعتي. فهذه المرّة لن أهدِرَ مزيداً من الوقت والحياةِ متسائلاً أيَّ وجهةٍ أتّخذ. قطعتُ شوطاً وأنا مستغرقٌ في هذه الأفكار حتّى شعرت بعيْنيْنِ زرقاويْنِ ترمقانني بفضول.

- مرحباً- قلتُ وقد التفتُ سريعاً إلى الشابّ الغامض.

- ما هي هذه الآلةُ الغريبةُ التي نسافر بها؟- سأل وهو ينظرُ حوله داخل السيارة. وأين جناحاها؟ - هل تقصد السيارة؟

- سيّارة؟ أليسَ في وسعها الإقلاعُ عن الأرض؟

- كلّا -أجبتُ وقد جُرِحَتْ كبريائي بعض الشيء.

- أوليسَ في وسعها حتّى الخروج من هذا الشريط الرّمادي؟- سأل وهو يشير بإِصبعه نحو الزجاج الأماميّ، بينما بدأتُ أنا أدركُ حجم قيودي.

-هذا الشريط يُسمى الطريق – شرحت له بينما كنتُ أتساءلُ: «من أين طَلَعَ هذا الفتى؟» وأفكّرُ أننا لو خرجنا منها بهذه السّرعة، لقتلنا أنفسنا.

- وهل هذه الطرقاتُ هي هكذا مستبدةٌ دوماً؟ من الذي اخترعها؟

- الإنسان.

تبيّنَ لي أنّ الإجابةَ على مثل هذه الأسئلة شديدةِ البساطةِ أمرٌ بالغ التعقيد. من عساه يكون هذا الشابُ الذي يُشعُّ براءةً وجاءَ كالزلزالِ ليزعزع منظومة المعتقداتِ التي ورثتُها.

- من أين أتيْتَ؟ وكيف وصلت إلى هنا؟ سألته وقد لمحتُ في عينيه شيئًا بدا لي مألوفًا على نحوٍ غريب.

- هل هناك كثيرٌ من الطرقات في **الأرض**؟ سأل من دون أنْ يلقيَ بالاً لكلماتي.

- نعم، إنّها لا تُحصى.

- لقد كنتُ في مكانٍ بلا طرقات- قال الشابّ الغامض.

- لكنْ قد يضيع الناس هناك ...قلتُ وقد أحسست بالفضول يتنامى داخلي لمعرفة من كان ذاك الشّابّ ومن أين انحدر.

- وحين لا توجد طرقاتٌ في **الأرض**، ألا يفكّر الناس في البحث عن دليلٍ لهم في السماء؟ أردفَ بكلّ هدوءٍ، ثمَّ أدار بصره نحو النافذة.

- في الليل يمكنُ الاهتداءُ بالنجوم- أجبتُ بعدَ تفكيرٍ- لكنْ إذا كانَ الضوء شديد السّطوع، فقد نُصاب بالعمى.

- آه!- تعجّبَ الشابّ قائلاً- يرى العُميانُ ما لا يجرؤ أحد على رؤيته. لا ريبَ في أنّهم الأشجعُ بيْنِ أناسِ هذا الكوكب.

- لم أعرف بماذا أجيب. لفّنا الصّمتُ، فيما تابعتْ السيّارةُ تقدّمها عبر الشريط الرماديّ المستبدّ.



الفصل 3

مرّت لحظاتٌ قبلَ أنْ ألحّ عليه بالسؤال، مفترضاً أنّ الخجلَ هو ما منعه من الإجابة :

- ماذا حدث لك؟ بوسعكَ أن تحكي لي. وإن كانَ لك حاجةٌ فسأقضيها لك، غيرَ أنّ الشابّ ظل ملتزماً الصّمت.

- يمكنك أنْ تثقَ بي. قل لي ما اسمك وما هي مشكلتك - قلتُ غيرَ راغبٍ في الاستسلام.

- أيُّ مشكلةٍ؟ أجاب أخيراً.

حاولت أن أخففّ وطأة السؤال بابتسامة. علّها تريحه بعض الشيء.- حينَ يُعثرُ عليكَ مطروحاً في منتصف الطريق، في الخلاء، فلا بدّ من أنْ تكون لديك مشكلة.

بعد لحظة تأمّلٍ، فاجأني بهذا السؤال:

- ما الذي تعنيه بـ«مشكلة» بالضبط؟

ابتسمتُ ظانّاً أنّه لا يبتغي من سؤاله سوى المزاح.

- ما الذي تعنيه « مشكلة»؟- ألحّ ثانيةً، ولاحظتُ أنّه ينتظر إجابتي. لكنّني، دهشاً بعدُ لردّة فعله، قلتُ لنفسي لعلّه لم يفهم السؤال.

- Problem— ...problème[1] قلت الكلمةَ بلغاتٍ أخرى وإنْ كادَت تكون هي ذاتها فيها جميعاً.

- لقد سمعتُ الكلمة-قاطعني قائلاً- لكن؟ هل لكَ أنْ تشرحَ لي ماذا تعني؟

عبثاً حاولتُ أنْ استخرج من ذاكرتي التعريف الذي يورده القاموس، وقد تعجّبتُ كيفَ لصبيٍّ، في هذا العالم العاجِّ بالمشكلاتِ، ألّا يكونَ قد سمع من قبلُ بمصطلح «مشكلة». وبعد أنْ تيقّنتُ أخيراً من أنه لا مهربَ لي من نظرته النافذة، حاولتُ تعريفاً من عندي.

- إنّ مشكلةً ما هي بمثابةِ بابٍ مفاتيحُه ليست بحوزتك.

- وماذا تفعلُ حينَ تصادفك مشكلة؟- أرادَ الشابُّ أن يعرفَ وقد شدّه الحوارُ أكثرَ من قبل، فيما ظلّت نظرته شاردةً في البعيد.

- حسناً، في البداية ينبغي معرفة ما إذا كانت المشكلةُ حقّاً مشكلتَك، وما إذا كانت تعرقل طريقك. وهذا أمر بالغُ الأهميّة، لأن هناك كثيراً من الناس يتدخّلون في شؤون الآخرين وإنْ لم يُطلَبَ منهم ذلك، فيهدرون الوقت ويستنزفون القوى ولا يَدَعون الآخرين يعثرون على حلولهم الخاصة. قُلت موضّحاً، ومنتبهاً إلى

---

(1) بالإنجليزية والفرنسيّة في الأصل.-جميع الهوامش الواردة في هذا الكتاب من وضع المترجمة.

أنّ الفتى قد هزَّ رأسه مقرّاً بهذه الحقيقة الجليّة التي كثيراً ما يصعبُ على الكبار القبول بها.

- فماذا لو كانت مُشكِلتَك أنت؟ – سألَ ملتفتاً إليّ.

- عندئذٍ عليك أنْ تعثرَ على المفتاح المناسب ثم تُدخله بالطريقة الصحيحة في القفل.

- يبدو الأمر بسيطًا- استنتجَ الشابُّ مؤكّداً عبارتَه بإيماءةٍ بليغة.

- لا تحسبه كذلك- أجبتْ. ثمّةَ من لا يعثرون على المفتاح، ليس لأنهم يفتقرون إلى الخيال، بل لأنهم لا يريدون أنْ يجرّبوا المفاتيحَ التي بحوزتهم أكثر من مرّة ، ولا حتّى يحاولون ذلك. يريدون من يضعُ المفتاح في أيديهم، بل ما هو أسوأ بعدْ، إنّهم ينتظرون أنْ يأتيَ أحدٌ ويفتح لهم الباب.

- وهل جميعهم قادرون على فتح الباب؟

- إنْ كنت مقتنعاً بقدرتكَ على فتحه، فأغلبُ الظّن أنْك ستفعل. وإنْ كنت تعتقد أنك عاجزٌ عن فتحه، فمن شبه المؤكّدِ أنّكَ لن تفعلَ.

- وماذا يحدث لأولئك الذين يعجزون عن فتح الباب؟- تابع الشابُّ سؤاله.

- ينبغي عليهم أنْ يحاولوا مرة بعد مرّةٍ إلى أنْ ينجحوا، وإلا فلن يفلحوا في بلوغِ ما هم مؤهّلون لبلوغه. ثمّ أردفتُ كما لو كنتُ

أفكّر بصوتٍ عالٍ: - ولا يجدينا نفعاً أنْ نفقد أعصابنا، أن نؤذيَ أنفسنا بأنْ نصارعَ الباب مُحمّلينه وِزرَ متاعبنا. مثلما لا ينبغي لنا أن نستسلم للعيش على الجانب الآخر من الباب حالمينَ بما قد يكون وراءه.

- وهل هناك ما يسوّغُ عدم فتح الباب؟ عادَ الفتى يسألُ وكأنّه لم يكتفِ بشرحي.

- على العكس من ذلك تماماً! أجبت. لقد طوّر الإنسان قدرة هائلة على اختراع المسوغات. فهو يفسّرُ عجزه بافتقاره إلى العطفِ أو التأهيل أو بما كابده من معاناة. بل بلغ به الأمرُ أنْ يُقنعَ نفسه بأنّ من الخيرِ له ألّا يتجاوز العتبة، بحجّةِ أنّ بعض المخاطر تنتظره على الجانب الآخر منها. أو قد يصرّح بسخرية أنه لا يبالي بما قد يكون وراءها ... لكنّ هذه كلّها ليست سوى طرق لإخفاء ما يحسُّ به من ألمٍ نتيجةَ إخفاقه. وكلّما أمعنَ في رفضِ الصّعوبات التي تعترضُ طريقه، تفاقمت وشعرَ بصغره أمامها، أو بعبارةٍ أخرى، كلّما أطلتَ حملَ المشكلةِ على كتفيْكَ، تعاظمت وطأتُها.

شعرتُ أنّ مقاومةَ الشّابِّ قد بدأت تتراجع، لكنّ نظرةَ الحزن الثابتةَ في عينيْهِ والاستسلامَ الذي بدا في ملامحه دفعاني إلى المتابعة:

- وهذا كلّه يجلبُ لنا الشّقاء. فالطريق إلى الارتقاء الرّوحي والسعادة يتطلّبُ منّا أنْ نمتلك ما يكفي من الشجاعةِ لكي نتغيّر وننضج. علينا أن نكون مستعدّين لأن نهجرَ راحتنا ونواجه المشكلاتِ مرّة

تلو المرّة، إلى أنْ نعثرَ على حلولٍ تُرضينا وتمكّننا من عبور هذا البابِ والمضيِّ قدمًا.

- وماذا أفعل كي أعثرَ على المفتاح الصحيح؟ - تابعَ يسألُ من دون أنْ يتركَ لي ما يكفي من وقتٍ لأنتشيَ بهذه المقارنة الجميلة بين المشكلة والباب، فقد اتّضح لي أنه لم يكن في حالةٍ تسمحُ له بتذوّقها.

وعند تلك اللحظة، اضطررتُ إلى رفع قدمي عن دوّاسةِ السرعة ثوانيَ قليلةً، لأنني كنتُ قد اقتربتُ من شاحنةٍ ممتلئةٍ بالمواشي. وحينَ نظرتُ إلى مؤشّر الوقود، تملّكني رعبٌ مفاجئ من أنّ ما بقي منه قد لا يكفي للوصول إلى محطة التزوّد التالية الواقعةِ على بعد عدة كيلومترات. وعلى غيرِ رغبتي، اضطُررت إلى تخفيف السّرعةِ للحدّ من استهلاكه. لم تكن سيارتي، لسوء الحظّ، مجهزة بتلك الأنظمة الحديثة التي تحدّد عدد الكيلومترات الممكنِ قطعُها بما تبقّى من وقود. فعزّيتُ نفسي مُفكّراً في أن الشاحنة ستظلّ ورائي ويمكن أن تقدّم لي المساعدة إن لزم الأمر، هكذا اقتربتُ منها محيّياً بابتسامة عريضةٍ ردّ عليها السائقُ بودٍّ مطلقاً بوق الشاحنة. حتّى اليوم، لاتزالُ مصادفةُ إنسانٍ آخرَ على الطريقِ في باتاغونيا حدثاً مفرحاً، ما جعلَ هذا النوع من التحيّة يتحوّلُ إلى عادةٍ لطيفة.

- كيف يمكنني العثور على المفتاح الصحيح؟ - ألحَ الشابّ بسؤاله متجاهلاً أفكاري، فهو إنْ صاغَ سؤالاً مرّةً لا يتراجع عنه أبداً.

- حسناً، هو ذاك بالضّبط! أجبت محاولًا أنْ أخفيَ انزعاجاً طفيفاً أحسست به نتيجة التّعبِ من طولِ الطريق.- بمعنى أنّكَ حينَ تواصلُ طرح الأسئلةِ مرّة تلو المرّة، فلا بدّ من أنْ تجد الإجابةَ في نهايةِ المطاف. وإذا اجتهدت في تجربةِ كل ما بحوزتك من مفاتيح، فسوفَ تنجحُ أخيراً في فتح الباب.

وقلت في نفسي: «وإذا واصلتَ تكرار أسئلتك ليومين أو ثلاثة، فلسوف تحوّلني إلى مجنونٍ حقّاً ، وهو ما ترجمه صوتٌ خفيضٌ في داخلي إلى «عاقلٍ حقّاً».

الفصل 4

أما وقد شجّعتُ الفتى على متابعةِ السؤال، فلم يعد من شيءٍ يثنيه عن ذلك. ثمّ خطرَ لي أنّ هذه المحادثةَ الفريدة، ونظرًا لطولِ الطريق ورتابته، قد تصبح مصدراً للمتعة إنْ أنا حوّلتُ الأسئلةَ إلى لعبة ألغازٍ وتوقّفت عن عدّها امتحاناً مزعجاً. والغريبُ أن هذا التغيّر في تقييم الموقفِ قد بدّد تعبي كما بفعل السّحر، ووجدتُني يقظاً متأهبّاً لأنْ أُطلقَ العنان لمخيّلتي.

- لقد قلتَ إنّ المفتاح لا يكفي -تابعَ يسألُ بعدَ أنْ استوى جالساً في مقعده-، بل عليك أيضًا أن تجد الطريقة الصحيحة لاستخدامه. فكيف لي أنْ أجدَ هذه الطريقة؟

- نعم، هو ذاك -بدأتُ حديثي مدفوعاً بطاقةٍ جديدة، ومعزّزاً كلماتي بالإيماءات.- إنّ خير طريقة لحل مشكلةٍ ما هي أن نكفّ عن عدّها مشكلةً وأنْ نتعامل معها بوصفها مجرّد عقبةٍ أو تحدٍّ. صحيحٌ أنّها تظلُّ عائقاً من الناحيةِ المنطقّية، لكنّ تناولها منذ الآن بنظرة إيجابية يشحذ الذكاء ويفتحُ الطريق أمام حلولٍ مستقبلية. بل إنّ عليك أنْ تشكر العناية الإلهية حينَ تضعكَ في مواجهةِ العقباتِ من حينٍ إلى آخر.

- الشّكر على العقبات؟ - سأل متشكّكاً.

- نعم، فهي تتيحُ لك الارتقاء والصعود عالياً في طريقك نحو الاكتمال. مثل الريح التي تقُوّي الجذور كي تمنحَ الأشجارَ قدرةً أكبرَ على الصّمود. فإن أنتَ تأمّلتَ العقباتِ في حياتك على هذا النّحو المواتي، أهدرتَ وقتًا أقل في الشكوى وحظيتَ بحياة أفضل.

ولمّا رأيتُ الشابّ مُنتبهاً لحديثي، تابعتُ بلا انقطاع:

- أمرٌ آخر يمكنُ أنْ تلجأ إليه ما إنْ تتبدّى لك عقبةٌ ما: ألا وهو الإقرارُ بها، ومراقبتها من زوايا مختلفة، أو ربما تجزئتها إلى عقباتٍ أصغر. أوْمأ الشابّ برأسه قائلاً:

- واجهتُ مشكلةً كبيرةً ترتّبَ عليّ حلُّها بتقسيمها إلى أجزاء.

- ما هي؟ سألتُ بفضولٍ واضح.

- لقد تعذّرَ عليّ الوصولُ إلى **الأرض** من المحاولة الأولى .... – كان عليّ أنْ أجتهدَ في إخفاء دهشتي لأمكّنه من متابعة حديثه.- ولهذا اضطُررتُ إلى تقسيم المسافة والتوقّف في سبعِ محطّاتٍ من كويكباتٍ مختلفة.

قلتُ لنفسي، صحيحٌ أنّ رفيقي هذا قد فقدَ صوابه على ما يبدو، لكنّه مع ذلك يمتلكُ مخيّلةً واسعة.

وبعد لحظةِ صمتٍ بدا فيها غارقاً في ذكرياته، أردَف قائلاً:

- وفي إحدى الرّحلات التقيْتُ شخصاً كان يعاني مشكلةً لا حلّ لها.

- آه حقّاً؟ سألتُ في شرود.

- كان يشربُ لينسى.

- ينسى ماذا؟ سألت تلقائياً.

- كان يملؤه شعورٌ بالخجل والذّنب.

- لماذا؟ أردت أن أعرف.

- لأنّه يدمنُ الشرب، أجاب الشابّ مغلقاً الدائرة على هذه الحادثة التي كانت تحيّره. فقلت:

- الشعور بالذنب يشلّنا ويمنعنا من حل العديد من المشكلات. أمّا تحمل المسؤولية فيبدّد هذا الشعور ويسمح لنا بالإقدامِ على أفعالٍ أكثرَ إيجابيّة، مثل تعويض الضرر الناجم إلى أقصى حدّ ممكن. أو ببساطة، عدم تكرار السلوك الذي جعلنا نشعر بالذنب.

- ولكن إذا ارتكبتَ خطأً، فكيف لك ألّا تشعرَ بالذنب؟- تساءَل.

- الشعور بالذنب لم ينفع هذا الرجل المولع بالشرب. إنّه عقابٌ عديم النّفع يسلبُ طاقاته وهو لا يستمرُّ فيه إلّا لأنّه قد توقّفَ عن حبّ ذاته.- ألم تسأله لمَ لجأ إلى الشرب؟

- كلّا ... أجابَ الشابّ مُتأتئاً، فشعرت أنّ في وسعي أخيراً أنْ ابتسم، مُدركاً أنّ العثور على قبر فرعونٍ مجهولٍ أسهلُ من العثورِ على سؤالٍ لم يخطرْ بعْد ببال هذا الفتى.

- الوحدة، أو الافتقار إلى الحب، أو الإحباطُ من شيءٍ ما... لا أدري ما السبب، لكن مما لا شكَّ فيه أنَّ إدمان الخمر ليس أكثر من نتيجة. هاكَ مثالاً مؤثّراً على العواقبِ المدمّرة التي يجرُّها العجزُ عن تخطّي الصعابْ.

- كم كنتُ ساذجاً إذن في الحكم عليه على هذا النّحو! علّق الشابّ نادماً. ربّما لو أنني تعاطفتُ معه، لمنحته مفتاحَ الباب الذي لم يكن يقوى أبداً على العبور منه.

- ستغدو حياتنا أكثر إيجابية- أردفتُ قائلاً- إنْ نحنُ توقفنا عن الحكم على أنفسنا وعلى الآخرين، وإنْ سخّرنا طاقتنا من أجل حلّ المشكلات وتقبّل ما لا يمكن تغييره منها، بدلاً من



أنْ نشكو منها ليل نهارٍ ونعذّب أنفسا بالتساؤل عما إذا كنا نستحقُّ أنْ نُبتلى بها أو إنْ كان بإمكاننا تفاديها. وكما يقول المثل الشرقيّ القديم: أنْ تضيءَ شمعةً خيرٌ من أن تلعن الظلام.

كان الفتى يصغيّ إليّ باهتمام، لذا قرّرت أنْ أواصلَ التفكير بصوت عالٍ.

- سوف تكتشف في بعض الأحيان أنّ تغيير وجهةِ نظركَ كفيلٌ، وحده، بإزالة العائق، لأنّ العقبةَ الوحيدة في غالب الأحيان هي في داخلنا، في جمودنا وقصرِ نظرنا عن رؤيةِ الأشياء.

- العقبةُ في داخلنا؟ ردّد الأميرُ الشابُّ متشكّكاً وخافضاً بصره نحو سُرّته.

- هي كذلك في أغلب الأحيان-أجبت- ولكن الحلّ أيضاً يكمنُ فينا. إنّ عالم الأفكار والعواطف يجرّ وراءه العالم المادي. هكذا فإنّك قد تتخيّلُ الأشياء فتحدثُ لك. وإلى حد ما، فإنّك أنت من يخلقُ الواقعَ الذي يحيط بك، كما لو كنتَ إلهاً صغيراً لمحيطك.

- أَيُعقَلُ هذا؟ أليست الحقيقة على هذا الكوكب واحدةً لجميع البشر؟ سأل الشابّ متعجّباً.

- ربما تكون الحقيقة الكُليّة واحدةً في حدّ ذاتها، أجبتُ متفكّراً، لكننا لا ندرك سوى الجزء الذي يسجّله وعيُنا وفقًا لقدرة حواسّه ودرجة تطوره. وحينَ نُغربلُ الواقع الكليّ مستخرجينَ منه ذلك الكمّ الضئيل من الأفكار والمعارفِ والأشخاص، وفقاً لدرجة

اختلافنا أو اتفاقنا معها، فإنّنا في الواقع لا نعكس سوى صورتنا، على نحوٍ ما.

- تقصدُ أن الناس لا يتوصّلون أبداً إلى معرفةِ الحقيقةِ، بل فقط إلى معرفةِ أنفسهم من خلال هذه الحقيقة ؟

- يتجلّى ذلك إلى حدٍّ بعيدٍ عند ملاحظةِ القيود التي تحدّ حواسّنا، وهو ما تدلّل عليه الآلات القادرة على التقاط موجاتٍ من التردّدات العالية جدًا أو المنخفضة جدًا التي لا تستطيع آذاننا إدراكها، أو المَجاهرُ والمَراقبُ التي تضاعف قدرتنا البصرية. ومع ذلك، فإننا لا نفهم دائمًا وبالقدرِ ذاته أن مراقبة البيئة المحيطة بنا والأشياء التي تحدث لنا هي واحدة من أفضل الطرق لمعرفة أنفسنا، لأن كل ما يترُكُ فينا جرحاً من العالم المحيط يدلّ على أننا لسنا منسجمين مع المبدأ المماثل له داخلنا.

- ولماذا تقول الأشياء بهذه الطريقة المعقّدة؟ سألَ شاكياً.

- يبدو الأمرُ وكأنّ سلوكَ الجشِعِ لا يُضايقُ إلّا شخصاً آخر جشعاً، أمّا الكريم فسيتعاملُ مع هذا السلوك على أنه واقعةٌ بحدّ ذاته، دون أن يدعه يؤثّرُ فيه إلى هذا الحدّ- جادلتُ مدركًا أن رفيقي في هذه الرّحلةِ قد بدأ يستوعبُ المسألة.- وعلى النحو ذاته، فإنّ كلّ أولئك الذين يتعاركون مع الجيران والأقارب الأشرار، ويحتجّون على ظلم رؤساءهم، وعلى المجتمع، وأشياءَ أخرى عديدة، وسواء كانت حجتّهم في ذلك صائبة أم مخطئة، فإنما هم في الواقع

يتعاركون مع أنفسهم - كان هذا ما خلصتُ إليه مختتماً فكرتي.

- وعلى من سينتصرون في نزالهم هذا ضدّ المرآة؟» سأل الشابّ ذاهلاً.

- تكمن مشكلة هؤلاء النّاس -استنتجْتُ قائلاً- في عدمِ إدراكهم أن الشخص الذي يدخلُ في صراعٍ مع محيطهِ محكومٌ عليه بالهزيمة. فجلُّ معاناتنا نحنُ البشرَ نابعٌ من مقاومتنا للظروف المحيطة بنا ومن الصدام الحاصلِ بين البشر وبين قوانين العالم. والحكيمُ هو من يحيا في تناغمٍ مع كلّ ما هو موجود. إنّه يتأمّلُ الواقع ويُدرك أن كلّ ما هو موجود، راقه أم لم يرُقه، إنّما هو كما ينبغي له أنْ يكون. ويعرف أيضًا أنه قبل أنْ يرغبَ المرءُ في تغيير أيّ شيءٍ في العالمِ نحو الأفضل، ثمّه كثير ممّا ينبغي أنْ يغيّره في نفسه.

- وهل كل ما هو موجود حسنٌ لمجرد كونهِ موجوداً؟ لماذا تعقّدُ الأمورَ دوماً إلى هذا الحد؟ فلتضرب لي مثلاً أستطيع فهمه- من فضلك- طلبَ منّي رفيقي الشابّ.

- إنك عندما تضغط على جدارٍ بقوة- أخذتُ أشرحُ له- تشعرُ أن الجدار يقاومك بالقدرِ ذاته. وكلّما زادَ ضغطكَ عليه، اشتدّت مقاومته. فالحلّ إذن هو أن ترفع يديك عن الجدارِ ولسوفَ تتلاشى المقاومة من تلقاء ذاتها. إنّ من يعترفُ للجدارِ بحقّه في الوجود لا يعودُ بحاجة إلى دفعه وسيدركُ أيضاً أنّه لا يتأثّرُ بوجوده.

- حسنٌ جدّاً- قالَ موافقاً- ولكن إذا كان صحيحًا أننا لا نعرف سوى

جزءٍ من الحقيقةِ، فهذا يعني أنّ كل شخصٍ يعيش في عالمه الخاص، وأنَّه بقدرِ تعدّد الأشخاصِ تتعدّدُ العوالم.

- ربما سيكون من الأسهل لك لو تخيّلت الأمر على هيئةِ قطعٍ في لعبة الأحجية، فهذه القطعُ باتحادها معاً تخلقُ حقيقةً أكبرَ من تلك الحقائق التي تخلقها كلّ واحدةٍ منها على حده. وأروعُ من ذلكَ بعدُ أنّ كل إنسانٍ قادرٌ على تغيير العالم وتحويله وفقاً لتصوّراته الخاصة، بلا عراكٍ أو تدخّلٍ من قوى خارجةٍ عنه.

- أفهم ما ترمي إليه.- قاطعني بالقول- إن نظرتُ في المرآة ورأيتُ وجهًا عابساً، فليسَ عليّ سوى أنْ أبتسم.

- بالضبط – قلتُ موافقاً- وعلى النحوِ ذاته، فإن كان جارك عدوانيّاً، حاول أن تكون ودوداً. وإنْ أردت لك ابناً طيباً، فابدأ بأن تكون أباً صالحاً، والعكس صحيح. وينطبقُ الشيء ذاته على الأزواج والزوجات والرؤساء والموظّفين... وفي الواقع، فليسَ هنالك سوى طريقةٍ واحدةٍ لتغيير العالم، ألا وهي أنْ تبدأ بنفسك.

الفصل 5

مرّ وقتٌ ظلّ فيه كلانا شاردَ الفكرِ يتأمّلُ رحابةَ المشهد في باتاغونيا، كانتْ الريحُ تعصفُ بلا انقطاعٍ بأقماعِ الجبالِ المبتورة، ولا تبثُّ في الأحراجِ سوى بعضِ أنفاسٍ متقطّعةٍ. وفي البعيد، على سفح تلّةٍ مكسوّةٍ بالخضرة، كان لسانُ النوتروس[1] الأحمر يشقُّ طريقه الطويلةَ نحو الوادي. ثمّ خطرت لي فكرةٌ غريبة عبّرتُ عنها بصوت عالٍ:



(1) شجرة صغيرة دائمة الخضرة من عائلة البروطيّة المزهرة. تنتجُ أزهاراً ذاتَ لونٍ أحمرَ قانٍ وتنمو في الغابات المعتدلة في تشيلي والأرجنتين.

- ربما يكون هذا الكون على صورةِ روحٍ عُليا، أو شَبَهاً له، ابتُكر من أجلِ أنْ يتعرّفَ هذا الروح فيه على نفسه ويختبرها.

لم يبدُ هذا الخاطرُ مُفاجئاً للفتى الذي سأل من فوره:

- إذا كان الأمر كذلك، فما الذي ينبغي على سكّان هذا الكوكب أنْ يفعلوه؟ وهل هم أحرارٌ أم خاضعون مثلما أنتَ خاضعٌ لهذه الطريق؟

- من وجهة نظري- أجبت- أنْ تعيشَ يعني أنْ تتعلّم. كلَ ما يحدث يحملُ معنى ما لمن يعيشه. وكلّما تطوّر وعيُنا، سهلُ علينا استخلاصُ المعنى الكامنِ في ما يحدثُ لنا من أشياء. ولعلّنا في بعض الأحيان نجني من الألم والمرض اللذيْن نكرههما أعظمَ ثروةٍ روحيّة. لذا، أيّاً كانَ نصيبُك، عليكَ أنْ تكون ممتنّاً للحياة التي أتاحتْ لك أنْ تطوّر ذاتك. وإنّ القدرَ لا يعدمُ وسيلةً أبداً في جعلنا نستخلصُ الدروس من كلّ ما يولّد فينا مقاومةً، ومما لا نريدُ تقبّله.

- ما هو القدر؟ يبدو أنّه معلّمٌ شديدُ القسوة- قالَ الشابُّ متفكّراً.

- إنّه طريقُ كلّ إنسان ...

- وهل يُمكن تغييره؟»-سألَ وقد اشتدّت حيرته.

- نعم-أجبتُ باقتضابٍ، رغمَ علمي بأنّ مكتبات **الأرض** تحوي آلاف المجلدات التي يحاول أصحابها عبثًا العثور على إجابة قاطعة عن هذا السؤال.

ولمّا ظلّ الشّابُ يرمقني حائراً، قرّرت الاستعانةَ بالتشبيه.

- تخيّلْ أنك نهرٌ جارٍ عليه أنْ يندفع بلا هوادة، فتقرّرُ الالتفاف حول الجبال محاولاً العثور على مسارٍ يتطلّبُ منكَ أقلّ قدرٍ من المقاومة. مصاعبُ الحياةِ- أردفتُ - أشبهُ بالحصى التي تصادفها في طريقك. إنْ أنتَ جرفتها معك، ينتهي بها المطاف مشكّلةً سدّاً يعيق جريانك. لكنْ إنْ تخطّيْتها واحدة تلو الأخرى ما إنْ تظهر لك، يظلُّ تيّارُكَ دافقاً ومياهك صافيةً بلّوريّة؛ لكأنّ احتكاكها مع كلّ حصاةٍ قد زادها لمعاناً. قد تشعرُ في لحظةٍ ما بالذنب وبكونكَ غيرَ جديرٍ بهذه الشفافية، وإذ ذاك ستبحثُ عن وسيلةٍ تُكدِّر بها صفوَ مياهك. قد تغدو كسولًا وتتمطّى في السهول إلى أنْ تضلّ طريقك في البراري. وقد يصيبكَ غرورٌ عظيمٌ فتنحدرُ إلى جرفٍ هاوٍ لتصيرَ شلّالاً، أو تدخل أخاديد أفعوانيّةً تقودك إلى تيهٍ أبديّ. قد تقسو روحك فتصيرُ جليدًا، أو تتركُ لمستكَ النديّة تتشقّقُ يباساً في سراب الصحراء.

- لو كنتُ نهرًا لما وددتُ التجمّدَ أو الموت في الصحراء- اعترف قائلاً.

- فلتزرع النقاء إذن وسوف تغدو شفافًا. تخيل نفسك سخيّاً وسوف تُغني بيئتك، تجدّدْ فإذا بنضارتكَ تطفئُ الظّمأ أينما حللْت. ثِق بمُثُلِك وسوف تُلهم الآخرين، عِ كينونتكَ وسوفَ توقظ الآخرين. اتّخذ هدفاً لعيشكَ وسوف تحققُ ما جئت من أجله.

ثمّ توقفتُ عن الكلام، وفي ظلّ الصّمت، امتدّت نظراتنا على اتسّاعِ السهول المقفرة، صاعدةً ببطء نحو الجبالِ بأشباحها الزرقاء.

الفصل 6

بدا الشابّ مفتوناً بصورة النهر وظلّ غارقًا في أفكاره.

أما أنا فسرعان ما أدركت أنني على مدى تلك الساعات كنت أقود سيارتي رفقةَ شخص غريب (نعم، غريبٍ ولطيف، لكنّه غريبٌ في نهاية المطاف) يجلسُ إلى جانبي وأنا أجهلُ عنه كلّ شيء. ومع أنني كنتُ أرغبُ في اكتشافِ من يكون ذلك الشابّ الفريد، فقد أخبرني حدسي أن الأمور سوف تتكشّفُ لي سريعاً ومن تلقاء ذاتها من دون أنْ استعجلها. فالناسُ أشبهُ بالمحار أحياناً: ليسَ علينا سوى انتظار أنْ يسلمونا اللؤلؤ الذي يحملونه داخلهم. لكنْ، لم يكن حتّى لأستاذٍ في فنّ الباطن ومعرفةِ الغيب أنْ يتوقّعَ السؤال الذي تناهى إليّ في تلك اللحظة:

- وهل الخرافُ هي الأخرى تواجه مشكلات؟

- كيف؟

- الخراف... هل تواجه هي الأخرى مشكلات؟ كرر الشابّ بكلّ هدوء، كما لو كنت واحداً مّمن يجبُ أنْ تُقالَ لهم الأشياءُ مرتيّن كي يستوعبوها.

حمدتُ الله على نقصانِ الوقود، إذ أوجبَ عليّ أنْ أبطئ سرعتي، وإلّا فقدْ كان لسؤالٍ كهذا أنْ يخرجنا عن الطريق. نظرةٌ واحدةٌ إلى الفتى جعلتني أفهم أنّه كانَ جادّاً في سؤاله، وإذ وجدتُني في حيرةٍ من أمري، أجبته بمنتهى الصراحة:

- صدقاً، لا أعرف، أعتقد أنّكَ لكي تتيقّنَ مِن هذا الأمر لا بدّ من أنْ تكون خروفاً، ألا ترى ذلك؟ أدهشني أنّ الشابّ قد أومأ برأسه وبدا راضياً تماماً، رضاً قد لا يكون عائداً لمنطقي في الرّد، بل لكونه، على أيّةِ حالٍ، يقضي وقتاً رفقةَ شخص بالغ لا يجدُ غضاضةً في الاعتراف بجهله. ثم أضاف:

- تريدُ القول إنّه كي تعرف مشكلات الزهرة عليكَ أن تكون زهرة، صحيح؟

لكنني لم أكن مستعدّاً لقضاء فترة ما بعد الظهر بأكملها مدافعاً عن نفسي ومنتظراً المفاجأة التالية من خصمي. فكانت تلك اللحظةُ فرصةً رائعة لشنّ هجومٍ مضادّ عنيف.

- مخطئٌ يا صديقي- أجبتُ منتقلاً إلى وضعيّة الهجوم. إنّك لست بحاجةٍ لأن تكون زهرة كي تفهم أن للزهور مشكلاتِها أيضاً: إنّها جميلةٌ وعزلاءُ في آنٍ معاً. بعضها يمتلكُ أشواكاً تحميها ممّن يودّون- وقد جذبَهم جمالها- أنْ ينتزعوها من نبتتها ويضعوها في مزهريّة.

نظر إليّ فزعاً. حتّى ظننت أنْ سيغمى عليه، لكنّه استجمع قواه وتمكّن أخيراً من الكلام:

- وهل تفلحُ الأشواكُ في حمايتها؟ كانت نظراته تتوسّلُ ردّاً إيجابيّاً، لكنني، مزهوّاً باعتقادٍ متغطرسٍ أني أمتلك الحقيقة، اندفعتُ بلاهوادة؛ ففي نهاية المطاف، كانت تلك مجرّد لعبةٍ، ليس إلّا.

- كلّا، لا تفلحُ الأشواكُ في حمايتها، وتلك هي مشكلتها - أجبت.

ثمّ تبيّنَ لي من التعبيرِ الذي ارتسمَ على محيّا صاحبي الغريب أنّ الأمر عنده لم يكنْ مجرّد لعبة. إذ اكتشفتُ لاحقاً -وهو ما أحزنني- أنّها كانتْ عندَه مسألة حياةٍ أو موتٍ متعلّقةً بصديقة عزيزة عليه.

إننا نلعبُ، نحنُ الكبارَ، في بعض الأحيان ، ومن دون أنْ نعيَ ذلك، بمشاعر شديدةِ العمقِ لدى الأطفالِ محطمّينَ داخلهم أشياء قيّمةً جدّاً وأعظمَ قيمةً بعدُ من تلك الأشياء التي قد يكسرونها هم بأيديهم.

لم يُجدِ نفعاً تذكيري له بأن الزهور قد استطاعات البقاء آلاف السنين متعايشةً مع تلك المشكلة بل إنّها، بطبيعتها، مؤهّلةٌ لتحَملّها، فلم يكن هذا ما يقلق الفتى. كلّ ما كانَ يريده أنْ ينقذ زهرةً واحدة فريدةً، وحينَ تكون الزهرة فريدة من نوعها، فإن جميع الإحصائيات وكتب البستنة في العالم لن تمنحكَ العزاء. وكما لو كانَ يفكّر بصوتٍ عالٍ أردف قائلاً:

- ربما لو تخلّت عن جمالها، واحتجبت، لما واجهت المشكلات... لكنها لكفّت في هذه الحالةِ عن أنْ تكون أزهاراً. استخلص قائلاً. لا بدّ أنّها في حاجة إلى إعجابنا بها كي تكون سعيدة، إنّه الغرور. تلك هي مشكلتها.

وفي تلك اللحظة، عاد إلى عينيه تعبيرُ الحزن ذاك الذي كنتُ قد لمحتُه فيهما قبلَ أنْ يحجبه الفضول تدريجيّاً.

- على أية حال لم تعد مشكلات الخراف والزهور تشغلُ بالي بعد الآن.

لم أفهم ما كانَ يرمي إليه بقوله هذا إلاّ بعد حينٍ.

وبعد لحظاتٍ من الصّمت، تابعَ قائلاً:

- أبحث عن شخص لم أره منذ فترة طويلة: إنه يشبهك إلى حدّ ما، لكنّ الآلة التي يقودها تطير.

- طائرة؟ سألت مرتبكاً بعضَ الشيء.

- نعم، هو ذاك، طائرة.

- أين يعيش؟ أردتُ أن أعرف علّني أساعده، فقد علمتُ بوجودِ عددٍ من أنديةِ الطيران في المنطقةِ وفقاً لما تشيرُ إليه الخارطة.

- لا أعرف ، أجاب بحزن. ثمّ قالَ متفكّراً: لم أكن أعرف أن الناس هنا يعيش الواحدُ منهم بعيداً عن الآخر إلى هذا الحدّ. وحينَ طالعَ الحيرةَ في وجهي استدركَ قائلاً:

- كما تعلمُ، **فالأرضُ** كبيرةٌ جدّاً وكوكبي بالغ الصِّغَر.

- وما الذي تنوي فعله للعثور عليه؟ سألت، وقد أخذتُ أُنعشُ ذلك الجزء من ذاكرتي حيثُ تقبعُ العديد من روايات الألغاز التي قرأتها

في صباي. لكنَّ الرّدَ الذي جاء به كانَ لِيُحيّرَ هركيول بوارو Hércules Poirot[1] نفسه.:

- لقد أهداني نجماتٍ ضاحكة. قال بصوتٍ ملؤه الحنين، وقد استأْسرتْه عاطفته للحظة، حتى أنّي لمحتُ الدّمع في مقلتيْه.

وكان في تلك اللحظة- حيثُ كنتُ أحاولُ تخيّلَ شخصيّة الطيار الذي كانت النجوم تبتسمُ له - أنْ أدركتُ من هو رفيقي ذاك، بالطبع عرفت! الخروف... والزهرة والمعطفُ الأزرق... كان يجب أن أدرك ذلك منذ البداية، لكنّي كنت غارقاً تماماً في كويكبيَ الخاصّ بعيدِ الغور ...



(1) المحقّق والشخصية الرئيسة في العديد من روايات الكاتبة أغاثا كريستي البوليسية.

الفصل 7

استنفد محرّك السيارة آخر لتراتٍ من الوقود الاحتياطيّ، وفي تلك اللحظة بالضبط ظهرت أمامنا - كما لو أنها جاءت لإنقاذنا -محطةُ وقود -. تنفّستُ الصّعداء. وبعد أنْ ملأتُ خزّانَ الوقود وتحقّقتُ من مستويات الزيت والماء، ارتأيتُ أنْ أصرّ على الأمير الشّابّ بأن يذهب إلى الحمّام ويتبرّد بالماء كي يستعيد نشاطه، فقد بدا فاقداً الرغبة في الاعتناءِ بنفسه.

وبعد شوطٍ قصيرٍ قطعناه على الطريق ، سألته:

- هو من أهداك الخروف، أليس كذلك؟

كلانا كان يعرفُ من كنتُ أقصدُ بكلامي، لكنني استشعرتُ الألم في حديثه حينَ أجاب:

- هذا ما اعتقدتُه آنذاك ...

- ماذا تقصد؟ سألت- حاثّاً إيّاه على مواصلةِ حديثه. لاحتْ على وجهِه علاماتُ حزنٍ، تبعها شكّ، ثمّ غضب، ثمّ حزن مرة أخرى، هكذا في تعاقبٍ سريع . وبدا وكأنّ عيْنيه الشفافتيْن تيْنِك، تتقدّانِ

كالجمر في محجريْهما. تتقدّان أملاً ربّما. وقد أخبرني حدسي بأنّ الأمل هو ما جلبه إلى هذه البقعة.

وحينَ تحدّث أخيرًا، كانَ لصوته نبرةُ استتسلام خافتة.

- إنّها قصّة حزينة، لا أظنُّ أنّها ستثيرُ اهتمامك، قال دون أن يتساءل لحظةً كيفَ علِمتُ بوجود الخروف.

- بلى، تهمّني بالطّبع! - أجبتُ بقدرٍ من التشديد خشيتُ معه أنْ يصيرَ لِزاماً عليّ شرحُ لمَ أنا مهتٌّم إلى هذا الحدّ بوجودِ خروفٍ لم يحدث لي أنْ رأيته من قبل. وشعرتُ بالارتياح حينَ رأيت الأمير الشّاب يبادرُ بسردُ قصّته، كما لو أن خصمي في لعبةِ شطرنج قد فوّتَ النّقلةَ التي كانَت ستمكّنه من إماتةِ الملك.

ذات صباح، وبينما كان الأمير الشابّ يشارك في المهمّة اليوميّةِ المتمثلة في تنظيف الكوكب وترتيبه («كما تعلم، فإنّ من المهمّ الاعتناءَ بنظافةِ الكوكب،» - كما أشار)، كلّمَتْه عشبةٌ كان على وشك اقتلاعها قائلةً:

- إذا اقتلعتني، تكونُ قد ارتكبتَ خطأً آخرَ.

- ماذا تقصدين بـ«خطأ آخر»؟ سألها، مُشتبهاً في أنّ الأمرَ ينطوي على مكيدة.

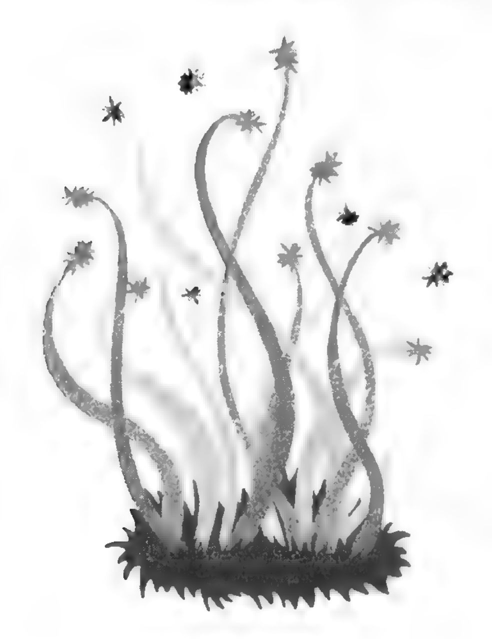
- أقصدُ أنكَ بذلك سوف تحرم نفسك من عشبةٍ بارعةٍ قد يكون لك فيها نفعٌ كبير. وفي نهايةِ المطاف، أيّ ضررٍ قد ينالك منّي؟ أنا الآن بيْنَ يديك، وفي وسعكَ اقتلاعي وقتما تشاء، لكنني أعتقد أنك ستحتاجني. سوف تكون سيّدي وأنا خادمتك.

وقبلَ أنْ يحسمَ الأميرُ الشابّ قراره، سأل من جديد:

- ماذا قصدْتِ بـ«خطأ آخر»؟ ما كانَ الخطأُ الأوّل؟

- خطأ بسيط جدا، يا سيّدي. إنّك تعتقدُ بأنَّ هنالك خروفاً في ذاك الصندوق، أليس كذلك؟

- بالطبع هنالك خروفٌ في الصندوق! - قال الأمير الشابّ غاضباً. إنه خروفٌ أبيض جميل أهدانيه صديقي على كوكب الأرض. وقد نسي مع الأسف أن يعطيني الكِمامَ والحبل لحظةَ مغادرتي، إذ كانَ غارقاً في حزنه. ولهذا السبب لا أستطيع اصطحاب الخروف في نزهة: قد يهربُ ويأكل الزّهرة.



وحينَ توقفّ يلتقطَ أنفاسه مُتأهباً لاقتلاع العشبة من التراب، تحدَّثت إليه مرة أخرى:

- لو أنّكَ يا سيّدي، بدلاً من أنْ تنجرَّ وراء عواطفكَ، تأذنُ لي بأن أشرح لك الأمر، أعتقد أنني قادرةٌ على توضيحه لك على أتمّ وجه- قالتْ العشبةُ وقد بسطت إحدى ورقاتها فظهرَ عليها أمام عينيّ الأميرِ الذاهلتيْنِ رسمٌ يحاكي بدقّةٍ مشهدَ خروفٍ إلى جانبه طفل. وبعدَ أنْ تفحّص الأميرُ الشابُّ الرّسمَ للحظاتٍ، لم يجد مناصاً من الاعتراف بأنّه ما رأى في حياته أجملَ منه قطّ.

- هذا ليس رسمًا، إنه صورة فوتوغرافيّة- أوضحت العشبةُ بنبرةِ المنتصر، فقد وجدتْ وسيلةً تطيلُ بها أجلها. ثم تابعتْ قائلةً: - إنّها صورةٌ تجسّد الواقع مثلما هو عليه تماماً. فكما ترى، فإنّ الخروف يتجاوزُ خاصرةَ الطفل علوّاً. ولو سألتني عن السّبب، لأوضحتُ لك أن الخرافَ، حتّى الحملان حديثة الولادة منها، تفوقُ في طولها العشرينَ سنتيمتراً التي يُشكّلها الصندوق. ثمّ أردفت العشبةُ بنبرةٍ أرَقّ، غارزةً خنجرها في صميم القلب:

- أستميحك عذراً يا سيدي، يؤلمني ما سأخبرك به، ولكن بوصفي خادمتك، ينبغي أن أحذرك مّمن تسيءُ صنعاً إذ تسمّيه صديقاً، فقد استغلّ ثقتك، لأنّ الصندوقَ، في الواقعِ، فارغ.

لحظتها انهار عالم الأمير الشابّ من حوله. كان اليومَ الأشدّ حزناً في حياته. ومذاكَ لم يعد مؤمناً بأي شيء ولا واثقاً بأيٍّ كانْ. وما عادَ أيُّ غروب شمسٍ يعزّيه...

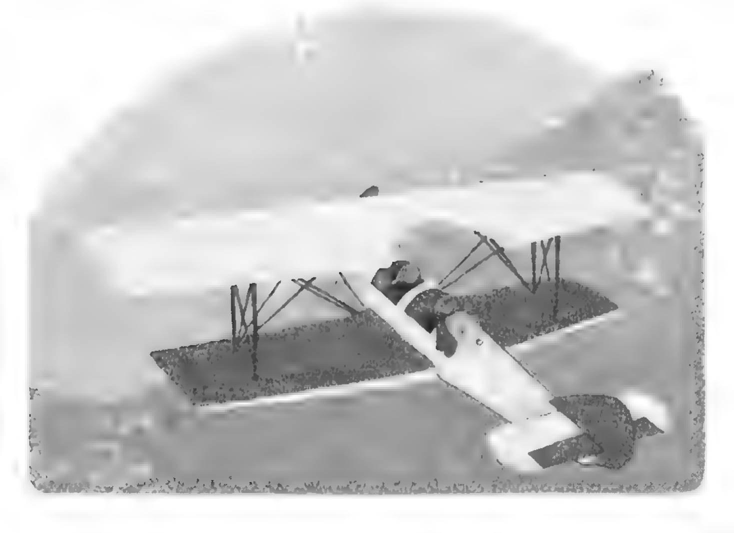
الفصل 8

رأيتُ الدّموع تجري على وجنتيْ الأمير الشّاب وهو يتكلّم، وكان عليّ أن أبذل جهداً كي أُبقيَ عينيّ على شريطِ الأسفلت الرماديّ الذي- وقد صارَ الآن مائلاً إلى السّواد- أخذ يمتدّ أمامنا عبرَ الأفق. أمّا هو فقد تابعَ حديثه بنبرةِ الاستسلامِ ذاتها:

- ومنذ ذلك الحين أخذت العشبةُ تشرحُ لي أشياء لم أكنْ أفهمُها من قبل. حذّرتني من الزّهورِ وحيلها الخبيثةِ ومن البشرِ وسلوكهم الخائن. هكذا كانَ أنْ اطّلعتُ على العلوم الكيميائية والفيزيائية وتلقيّتُ دروساً عن أحدث الإحصائيّاتِ والمتغيرات الاقتصادية. كما تعلّمت العشرات من الألعاب الافتراضية مستعيناً بإحدى ورقاتها المضاءة مثل شاشة متعدّدة الألوان. لكنْ في غيابِ خروفي، باتت أيّامي أطولَ ومساءاتي أشدّ حزنًا.

وذات ليلة، رأى الأمير الشابّ في منامه حلماً واقعيّاً مؤثراً. فقد وجدَ نفسهَ رفقةَ صديقه الذي كان يقود طائرة فوق **الأرض** مجتازاً مشاهد طبيعيّة بديعة: جبالاً مهيبة تفصلُ بينها وديانٌ ساحرة، حيث أنهارٌ بلّوريّةٌ

يُرى على صفحتها من حينٍ إلى حينٍ ظلُّ الطائرة. شاهدَ مُروجاً مُزهرة كأنّها بسطٌ مطرّزةٌ تحميها من الرياح غاباتٌ كثيفةٌ. ولمّا كانا يحلّقانِ على ارتفاعٍ منخفضٍ، فقد استطاعا رؤية الغزلان والخيول والماعز والأرانب البرية والثعالب تركضُ حرّةً عبر الحقول، بل إنّهما شاهدا سمكات



السلمون المرقّط تتقافزُ جَذِلةً في الجداول. وما كانَ لدى الأمير الشابّ من أسئلة يطرحها ولا لدى صديقه من تفسيراتٍ يُدلي بها.

كانا يكتفيان بتأمّل العجائب حينَ تمرّ أمام أعينهما ويبتسمان مشيريْن كلّ منهما إلى الآخر بما يستحقُّ أنْ يُلتَفتَ إليه، ثم يبتسمان ثانيةً. لم يحدث له أنْ شعر بمثلِ تلك السعادةِ من قبلُ أبداً. وفجأة، بدأ صديقه بالدورانِ ونبّهه إلى أنهما سيهبطان فوقَ تلّة مكسوّةٍ بالعشب. كان الهبوط مثاليًا، وكأنّ الأرض قد مهّدت لهما بساطها كي تستقبلهما

بترحاب. وفورَ نزولهما من الطائرةِ، اصطحبه الطيار إلى سفحِ التلّة المقابِل، حيث قطيعٌ كبير من الأغنام البيضاء يرعى مع حملانه بهدوءٍ، وقال له:

- هذه كلّها لك. لا أعرف تعدادها، ولا يبدو لي من المهمّ عدّها. لقد بدأت أربّيها منذ اليومِ الأوّلِ من رحيلك، وقد كبُرَ القطيع مثلما عظمَ ما أحمله لكَ في قلبي من مشاعر. وحينَ تحرّك الأمير الشابّ، متأثّراً، وأراد الاقترابَ من صديقه ليعانقه، استيقظ وحيدًا على كوكبه المظلم الصامت. سقطت عبَراته العذبةُ من عينيْه لتسيلَ مُرّةً على وجنتيْه وظنَّ أنه سمع صوتًا في داخله يقول:

- ابحث عن صديقك ودعْه يشرحُ لكَ دوافعه، بهذه الطريقةِ فقط ستعودُ لترى النجوم من جديد...

في صباح اليوم التالي، وفي وقت مبكر جدًا، ذهبَ ليودّعَ الزّهرةَ التي كانَ قد جافاها قليلاً في الآونة الأخيرة فوجدها شاحبة ذابلة، وكأنّ قلة اعتناءِ الشابّ بها قدْ استنزف قواها.

- وداعاً، أنا ذاهب- أعلن الأمير الشابّ- لكنّ الزهرة لم تُجِب. عانقها براحتيْه، لكنها لم تتحرك. هكذا، لم يعد هنالك ما يستدعي بقاءه.

ظهرت بعضُ أغصان أشجارِ الباوباب الخطيرةُ على جانبِ الطريق وبدأت أرضُ الكويكب تهتزّ، بسبب الإهمال في تنظيفِ البراكين بلا أدنى شكّ. غيرَ أنّ هذا كلّه لم يعد مهمًا عنده، فها هو قد تهيأ للرّحيل، لكنّه لمّا أوشكَ على المغادرةِ وجدَ نفسه من جديدٍ في مواجهة العشبةِ.

- إلى أين تمضي في هذا الوقت المبكّر جدّاً- سألته.

لم ينبسِ الأمير الشابّ ببنت شفة كي لا يُزعجَها، لكنّ عينيْه كانتا تشيانِ بما أرادات العشبةُ أنْ تعرف.

- لا يمكنك الرّحيل! أنت سيّدي! صاحت.

- إذن فأنتِ منذ اليومَ حرّةً- أجابها.

- لا يمكنك أن تفعل هذا بي. تعرف أنني لم أعد أستطيع العيش حرّةً. فأنا أحتاج إلى من أخدمه، وأنتَ تحتاج إلى من يخدمك. أصرّت العشبةُ قائلةً.

- إذا كنتُ لا أستطيع العيش من دونك، فأنا إذن عبدك وأنتِ سيّدتي، ردّ الأمير الشابّ.

- سوفَ أموتُ إنْ تركتَني هنا. لا يوجدُ سيّد آخر يستطيعُ اقتلاع الأعشاب وعاجلاً سوف تغطّي الكوكب بأكمله- قالت متوسّلةً.

- ترَدّد الأميرُ الشابّ للحظةٍ، لكنّه كانَ قد حسمَ قراره إلى غير رجعة. وسوفَ يتبع صوت حلمه.

- إذا كنتِ تريدين مرافقتي، عليّ أنْ أقتلعك من الأرض، قال للعشبة وهو يمسكُ ساقها بقوّة.

- كلّا، كلّا! صرخت.

- الوداعَ إذن. قالَ ومضى إلى سبيله.

- هكذا بدأتْ رحلتي. قال الأمير الشابّ - وقد فهمتُ أنّها كانتْ رحلة طويلة جدًا-ووصلتُ أخيرًا إلى كوكب **الأرض**، إلى هذه البقعةِ شديدة العزلة. لم تكلّمني الحيوانات والزهور مثلما كانت تفعلُ حين جئتُ طفلاً. ولم أجد أي بشرٍ يرشدُني. مرهقًا وجاهلاً إلى أين أمضي، سقطتُ منهكاً هنالكَ حيثُ عثرتَ عليّ ...

ثمّ لاذ بالصّمت. أمّا أنا فأدركتُ أنّ كلّ إنسانٍ منّا ينبغي أنْ يشرعَ في رحلة شاقّة إلى أغوار نفسه العميقةِ عاجلاً أم آجلاً. وما من غزوةٍ أخرى يمكنها أنْ تعودَ علينا بغنيمةٍ أعظم من تلك التي نجنيها من هذه الرّحلة.

الفصل 9

- كما ترى، إنّها قصّة حزينة للغاية، ولا أعتقد أنّه يمكنك فعل الكثير لِمساعدتي- خلُصَ الأمير الشابّ قائلاً- وقد كنتُ مستغرقاً إلى أبعدِ حدٍ في حكايته، حتّى إنني عندما توقّفَ عن الكلام ، شعرت أنّ سائقاً آلياً هو من كانَ يقودُ السيّارة.

- إنّها حقًّا قصة محزنة- قلتُ مقرّاً بكلامه. لكنّكَ أخطأت بقولكَ إنه ليسَ في وسعي مساعدتك. ثمّةَ العديد من الأشياء يمكنني فعلها! هنا اتخّذ الأمير الشابّ فورًا وضعيّةً دفاعيّة.

- لكن، أنت لا تُدركُ المسألة؟ لقد فقدتُ صديقًا كانَ يجعل النجوم تبتسم، وفقدتُ الخروف الذي كانَ يرافقني في المساءات، والزهرة التي كانت تملأ حياتي بهجةً بحيَلها وجمالها. ألا تفهم أنّني لن أرى ثانيةً العشبةَ التي كانت حاميتي وناصحتي، ولا كوكبيَ الصغير، الذي ربّما يكون قد انفجر الآن بسبب ثوران البراكين؟ وتظنُّ أنّ في وسعك مساعدتي؟ سأل بنبرةٍ متحدّيةٍ، وقد زادت فورةُ المشاعر المفاجئة تلك وجنتيْه حمرةً إلى حُمرة.

- بالطّبع - أجبتُ واثقاً- يمكنني مساعدتك في استعادة كل ما فقدته وأكثر. لأنّ ما فقدتَه، في نهايةِ المطاف، هو متعة العيش وسعادتك الخاصّة ... لكنّني لن أستطيع ذلك إلّا إذا أذنت لي وكنتَ مستعدّاً أيضاً لمساعدة نفسك.

رمقني بنظرة شكّ، لكنّه لم ينبس ببنت شفة، لذا أردفتُ قائلاً:

- إنّ هذه أولُ مُعضلةٍ كبيرة تواجهها في حياتك وينبغي عليك معالجتها. وإنّكَ وإنْ كنتَ مغتمّاً بسببها، فإنها في الحقيقةِ لا تعني نهايةَ العالم. حسبُكَ ما تحملهُ من رغبةٍ في التغلّبِ عليها، وهي على كلّ حالٍ رغبةٌ تُمليها عليك كلّ من طبيعتك الروحية وغريزتك الحيوانيّة على حدٍّ سواء.

- ومن أينَ لكَ كلّ هذا اليقينِ بأنّني أمتلكُ القدراتِ الضروريّة لحل المشكلة، وأنا نفسي لا أشعر بها؟

- ملاحظة جيدة- علّقتُ قائلاً- مهنّئاً نفسي على تمكّني من جذب انتباهه.- سأخبرك لماذا أنا واثقٌ إلى هذا الحدّ. إنّك، في المقامِ الأوّل، قد امتلكتَ شجاعة التخليّ عن الأمان الظاهريّ الذي كنتَ تنعمُ به في كوكبك، لتخرج إلى الكون بحثًا عن الحل. ثانيًا، لقد استطعت- رغم شعورك بالإنهاك- أنْ تصلَ إلى مكانٍ يُمكنكَ فيه العثورُ على شخصٍ يساعدك. فلو كنت سقطت في منتصف الطريق أو في الحقل، فلربّما كنتَ الآن ميّتاً. أمّا ثالثاً، فإنّنا في حوارنا الأول تحدّثنا عن المشكلات

والعقبات، ما يعني أنك تحاول العثور على معلوماتٍ مفيدة للخروج من المأزق الذي تعيشه.

وحينَ رأيتُ أنني آخذٌ في جذبِ انتباهه وكسبِ ثقته تابعتُ قائلاً:

- تحدّثناً قبلاً عن كيفية حلّ المشكلات. وإذا أردتَ، يمكننا النّظرُ في هذه العقبةِ التي تعترضُ طريقك. وأقول عقبةً لعِلمي أنّ في وسعكَ التغلب عليها، ومفتاح حلّها كامنٌ فيك- حتى وإنْ كنت لا تصدّق ذلك.

ردّ من فوره قائلاً:

- كيفَ لكَ أنْ تقولَ ذلك؟ كانت حياتي مطمئنّةً هانئةً إلى أنْ اكتشفتُ خدعةَ صديقي. تلك هي- ولا شيءَ سواها- علّةُ شقائي كلّه وما له من علّةٍ أخرى. ردّ الأمير الشابّ ساخطاً.

- أنت تُلقي بالمشكلة خارِجَك وتلوم شخصاً آخر على ما أنتَ فيه، وتلكَ طريقة ممتازةٌ في عدم حلّها- قلتُ بهدوء- فيما كانت عيناه كأنّما ترميانني بالشّرر. وقبل أن يتمكّنَ من قول أي شيء، استأنفت فكرتي: - سأريك لاحقاً، يا صديقي العزيز، أن الخدعةَ المفترضة ليستَ كما كنتَ تتخيّلها، أو على الأقل، لم يُقصد بها سوء نيّةٍ كما ظننت. لكن إذا افترضنا حاليّاً أن صديقك قد خدعك، فهذا يسوّغُ غضبكَ عليه، وخيبةَ أملكِ فيه، بل حزنكَ أيضاً، لكنّه لا يسوّغُ بالطريقةِ ذاتها حقيقة أنك قد توقفت عن الاستمتاع بجمال الزهرةِ، وشاعريّةِ غروب الشمس، وموسيقى النجوم.

ولمّا وجدتُني أستعيدُ انتباهَ محاوري، استطردتُ بهدوءٍ أكبر قائلاً:

- لقد كان لخديعة صديقك المفترضةِ أثرٌ مدمّرٌ على حياتك، لأنّ هذه الأخيرةَ كانت قائمةً على أساسٍ هشٍّ للغاية. ربما لم يعدْ الخروفُ يبعثُ في نفسكَ البهجةَ، ولا الزهرةُ المتمركزةُ حول ذاتها عادت تسلّيك. واضحٌ أنّ مهامّك اليومية لم تكن تملأ روحك وأنكَ لم تُنمِّ فنًا أو مهنةً تكون لكَ ملاذاً مؤقّتاً. ولعلّ واقعكَ بأكمله باتَ بلا طعمٍ، وصارَ الضّامنُ الوحيدُ لسلامِ أيّامكَ هو الحنين إلى صديقك الغائب. ولذا حين انهارَ هذا الضّامنُ الوحيد، كانَ منطقيّاً أنْ تسقط معه كلّ الأشياءِ الأخرى. في الواقع، فقد باتَ عالمك فارغًا، مثل الزهرة التي ذبُلت قبل رحيلكْ. لقد كانَ خداعُ صديقك المفترضُ مجرّد شرارة، ولم يكن بأي حال سببَ ما أنت فيه الآن. وكلّما قبلْتَ بهذه الحقيقةِ، تقدّمت أسرعَ نحو الحل.

شعرتُ أنّ معركةً بين التسويغ وبين القبول قد ابتدأت في نفسه، فسارعتُ إلى صوغِ ملاحظة أخرى بدت ذات مغزى:

- لو كنتَ أشدّ يقيناً، لو كنتَ تثقُ أكثرَ في مشاعرك، لما استطاعت العشبةُ أنْ تدخلَ بسهولةٍ إلى الثغرةِ التي في قلبك ولما كانَ لها أنْ تتركَ في حياتك هذا الأثرَ الضارّ.

تأهبَ الأمير الشابّ للاحتجاج، ربّما دفاعًا عن العشبة، لكنّني مستعيناً بما تبقّى من هواء في رئتيّ، أردفتُ بلا توقّف:

- لماذا نفضّلُ أحياناً من يُنذِرنا بالخيبةِ على من يُبشّرنا بالأمل؟

وقد منحتني الحيرةُ المؤقتة التي انتباته بسبب سؤالي المهلةَ الكافيةَ لأستأنفَ حديثي:

- فلْتَحذرْ من أولئك الذين يدمّرون أحلامك بحجّة أنهّم يريدون مصلحتك، فهم غالباً لا يمتلكون بديلاً يعوّضكَ عنها! - وتساءلتُ إنْ لم تكن ثمّةَ حكمةٌ في العادة القديمة المتمثّلة في إعدامِ رسولِ الأخبار السيئة. فقد اكتشفت على مرّ السنين أنّ الأخبار المنقولةَ، في أغلبِ الحالات، لم تكن صحيحة، أو أنّ حاملها كانَ يخفي غايته الحقيقية، أو أنني أوثرُ، ما دمت لا أملك شيئاً حيالها، أنْ يتأخرَ وصولها إليّ أطول وقتٍ ممكن. ثم أردفت:

- عاجلاً أم آجلاً ستكفُّ الأحلام عن أن تكون أحلامًا. حتّى حلمُ الحياةِ نفسها يوقظنا منه الموت أخيراً، أو ربما العكس. أقولُ لك بيقينٍ تامٍّ إنّ صديقك قد أهداكَ أجمل خروف في العالم، ذلك الذي أخذَ يرسمه لك خيالُك الجامح، الخروف الوحيد الذي في استطاعتك العناية به ويمكنه أنْ يرافقك إلى كوكبك الصغير. ألم تستمتع بصحبته في لحظاتِ الغروب؟ ألم تذهب لتجالسه في المساءاتِ كي يأنسَ بكَ وتأنسَ به؟ ألمْ تعتقد أنّه يخصّكَ لأنّكَ آويته، وأنّك تخصّه بالقدر ذاته؟ ما من شكٍّ أنّه كان أكثر واقعية من ذلك الذي شاهدتَه في الصورة الفوتوغرافيّة، وأكثرَ امتلاءً بالحياةِ. لأن هذا الأخير كانَ مجرد خروف، أمّا الخروف الموجود في الصندوق فقد كانَ خروفك أنت.

في تلك اللحظة أدركت لماذا لا أحمل معي في أسفاري صورًا لأحبَّتي: فالصورة التي أحملها لهم في قلبي أكثر حياةً.

وعندها توقفْتُ عن الكلام، لأنني حينَ التفتُّ سريعاً إلى رفيقي الشابِّ انتبهتُ إلى أنَّ عينيه قد



اغرورْقتا بالدمع، وكأنَّ رغبةً في البكاءِ كانتْ تسكنه منذ وقت طويلٍ.

- أشكرك- قال الأمير الشابّ- وبعد أنْ همّ بعناقي ولم يفعل، أراح رأسه على كتفي إلى أنْ غلبه النعاس.

الفصل 10

بعد ساعات قليلةٍ، ُقُبيْل الغسق، كنا ندنو من البلدة التي عزمتُ أنْ أقضيَ ليلتي فيها. ظلّتْ الطريق ممعنةً في عزلتها كما كانت خلال النهار، وإنْ صارَ بالإمكانِ الآن رؤيةُ بعضِ أماراتِ الحضورِ الإنساني: أشجار الحوْر البيضاء على ضفاف الطريق، أو حولَ بعض البساتين لحمايتها من الريح، وحفنةٍ من حظائرَ من حولها سياجٌ تؤوي لا أدري كم رأساً من الغنم.

وبخلافِ وقت الغروبِ بالغ القصر في كويكب الأمير الشابّ، فإن الغسقَ في باتاغونيا طويل يكتنفه الصّمت، وفي أثنائه، يتلّون نصف السماء بطيفٍ واسعٍ من تدرّجات اللون الورديّة والليلكيّة والأرجوانيّة. وفي ذلك اليوم كان بهاءُ غروب الشمس عظيماً إلى حدٍّ جعلني أوقظُ الأمير الشابّ كي يتسنّى له رؤيته.

- انظر إلى هذا الجمال!- قلت وأنا أشيرُ إلى الأفق، مُشيحاً ببصري عن الطريق للحظة.

- انتبه! حذرني الشابّ قائلاً، ولكن بعد فوات الأوان. فقد حدثَ

ارتطامٌ قويٌّ في مقدّمةِ السيارةِ فاهتزّت، وإذ دسْتُ على الفرامل، رأيت في المرآة العاكسة حيوانًا أبيضَ ممدّداً على الطريق، يبدو من بعيدٍ نعجةً. أوقفتُ السيارة وغادرتها متوجّهاً إلى مقدّمتها كي أعاينَ الأضرار الناجمة. حدَجني الأمير الشابّ بنظرةٍ كما لو أنّه لا يفهمُ ما كنتُ أفعل، ومضى في الاتّجاه المعاكس. وحينَ فهمتُ أنّه قد توجّه لمساعدة الحيوان المطروح أرضاً، قلت:

- دعكَ من المحاولة. فبعد صدمةٍ كهذه، لا بدّ أنّه مات. ليسَ بوسعنا فعلُ أيِّ شيء. لكنّ الشابّ، الذي كانَ يركضُ نحو تلك الكتلةِ البيضاء، صاح في وجهي:

- اليوم علّمتَني أنّ هناك دوماً ما بوسعنا فعله، حتى لو كنّا أنفسَنا لا نصدّقُ ذلك!

رنّت كلمات الأميرِ الشّابّ في سمعي، فيما كنتُ منحنياً لأتحقق من أنّ الضرر الظاهر من الارتطامِ اقتصرَ على تجويفٍ في جسم السيارة. ولقد نجحَ عبرَ كلماته، في إشعاري، حتّى ولو للحظةٍ فقط، بأن لي قلباً أقسى من تلك القطعة المعدنية التي بالرّغمِ من جمودها، كانت على الأقلّ تمتلك من الرأفةِ ما جعلها تستسلم وتنحني.

وبشيءٍ من الإحساسِ بالذنب راودني إثر تأنيب الشابِّ لي، التفتُّ صوبه. وحينَ دنوت منه، رأيته يضمُّ إلى حِجره رأس كلب أبيضَ ضخم، كان يحتضنه ويعانقُه في مشهدٍ بالغِ الحنان على الرّغم منِ أنّاتِ الوجعِ التي كان يطلقها الحيوان المُحتضَر.

شخصتُ ببصري، فإذا برجلٍ ضخمِ البُنيةِ يقبلُ نحونا من كوخٍ قريب، كانَ وجهه عابساً وهيئته تنذرُ بالتهديد. عرفتُ أنّه كانَ صاحب الكلب بلا ريْب. وفكّرتُ بأنه سيكون من الحكمة أنْ أنسحبَ من المكانِ كي لا أجدُني مضطراً لخوضِ نقاشٍ عديم الجدوى. أخبرتُ صديقيَ الشابّ أنّ من الخيرِ لنا أن نغادر، لكنّه لم يتحرّك واستمرّ يلاطفُ براحتيْه الحيوانَ المرعوب الذي باتَ واضحاً أنّه كانَ يُحتَضَر. ولمّا صارَ الرّجلُ على مبعدةٍ يسيرةٍ منّا، وإذ قدّرتُ الخطرَ المحتمل الذي يُحدقُ بنا، وجدتُ أنّ من الخيرِ لي أنْ أقترح عليه نوعاً من التعويضِ عن الخسارة. وحينَ أدركَنا أخيراً، أخرجتُ محفظتي وتمتمتُ معتذراً ببضع كلماتٍ، لكنه، بإيماءة اشمئزازٍ، أشارَ إليَّ بألّا أتحرّك، ومرّت بضع دقائقَ خيّمَ فيها على ثلاثتنا صمتٌ مؤلم. ولقد ظلّتْ صورة ذلك الكلب إلى اليوم محفورةً في ذاكرتي. كانَ صديقي الجديدُ محقّاً. بلى، بالطبع كانَ في وسعنا فعل شيءٍ.



ظلّ الأمير الشابّ ينظر بمحبّةٍ في عينيّ الكلب الأبيضِ الضخم، فتبدّدَ خوفُ هذا الأخيرِ إذ لم يعد يحسُّ بالوحدة. وشعرتُ بأن الرجل الريفيّ قد لاحظَ هو الآخرُ هذا التغيير. وبدت نظرةُ الكلبِ شبهِ الإنسانيّةِ وكأنّها تقدّمُ الشّكر. أغمضَ عينه اليسرى ثم اليُمنى. وأخيراً ارتجف جسمهُ كلّه رجفةً واحدةً لم يبدِ بعدها أيّ حراكٍ.

استمرّ الأمير الشابّ يلاطفُه براحتيه بضع دقائق أخرى. وحينَ تيقّنَ من أنّه قد فارقَ الحياةَ، التفت إلى الرجل للمرّة الأولى، وعيناه مغرورقتان بالدّمع. فما كانَ من هذا الأخيرِ إلّا أنْ مرّرَ بحنوٍّ غيرِ متوقعٍ راحته القوية على الشعر الذهبي، وبعد أن سحبها بلطف، أخذ الكلبَ الميّت بين ذراعيه.

- فلترافقني- قالَ متحدّثاً إلى الشابّ. وحينَ هممتُ باللّحاقِ بهما، ردَعَني قائلاً-: لا ، أنت لا، فقط هو. ثمّ أستدرك لِكيْ يُهدّىء من روْعي:

- لا تُزعج نفسكَ، فالأمرُ يتعلّقُ بأشياء لا تُشرى بالمال.

الفصل 11

إنّني لأعجزُ عن وصف تلك المشاعرِ التي استولت عليّ آنذاك. شعرتُ بأنني ظُلِمتُ وأسيء فهمي. لقد كانَ ردّ فعلي ذاك موافقاً لما هو معتادٌ في المجتمعِ عديمِ الإحساس الذي نعيش فيه. بل ثمّة ما هو أسوأ بعد، فأغلبُ الناسِ ما كانوا حتّى ليتوقّفوا، ولو فعلوا، فما كانوا ليقدّموا اعتذاراتٍ أو يقترحوا تعويضات مالية كما فعلت، بل لعنّفوا صاحبَ الحيوان على تركه له طليقاً في الشارع معرّضاً الحافلاتِ لخطر الحوادث. زد على ذلكَ أنّ قلقاً ساورني بشأنِ ما قد يحدثُ للفتى، لكأنّ وجوده بصحبة إنسان آخر غيري كانَ أخطرَ عليه من تركه ملقى على قارعةِ الطريق، حيث عثرتُ عليه في ذلك اليوم نفسه. وخطرَ لي أنّنا غالبًا ما نتصرّفُ تحت تأثير الخوف والارتياب، عوضَ أن نهتديَ بعاطفةِ الحبّ التي لطالما نقمعُها. إنّ الإنسانيّة محكومةٌ -(أو لعلّها مباركةٌ)- بحقيقة أنّ البشر جميعاً متحدّون فيما بينهم، فلو ابتلي واحدٌ منهم، لا يمكن لغيره أنْ ينعم بسعادةٍ تامّة. لسنا في منأىً عن أيّ شيء في هذا العالم، فألمه يطولنا وكذا فرحه. إنّ متَعَهُ لا تحولُ دون كونه عالماً معذّباً،

وعذاباتِه لا تحولُ دون كونه عالماً ممتعاً. وعلى قدرِ معاناتكِ فيه، تأتي سعادتكَ. ولهذا ينبغي علينا ألّا نكتمَ مشاعرنا، وألّا نعيش أبداً مثل الغرباء!

وبينا كانت الشمس تغوصُ مهيبةً في بحر الظلام، بدأ فجرٌ جديد يُشرقُ في قلبي. ولم ألبثْ أنْ رأيتُ الأميرَ الشابّ يعودُ وحيداً، يمشي كما لو كان يحمل شيئا بين ذراعيه، وحين صارَ على مقربةٍ منّي، تبيّنَ لي أنّ ما بيَنَ ذراعيه جروٌ أبيض جميل. فلم أصدق عينيَّ: ها هو الرجل الذي حرمناه توّاً من رفيقٍ عزيزٍ عليه يقدّمُ لنا حياةً جديدةً، هديّةً من عنده.

لقد كانت تلك معجزةً من صنع الحبِّ، وأوّلَ درسٍ أتلقّاهُ مِن الأمير الشابّ. كنتُ أتقاسمُ معه تجربتي عبرَ الكلمات، أمّا هو، فمثل معلّمٍ حقيقيّ، راح يطلعني على الحكمة في صمت. وها أنا الآنَ أدركُ بقدرٍ من الوضوحِ لم يتأتّ لي من قبلُ قطّ، أنَّ مئات الكتبِ عن فنّ الحبّ لا تضيفُ إلى قبلةٍ بسيطةٍ شيئاً، مثلما لا تضيفُ مئاتُ الخطب حوله شيئاً إلى لفتةِ حنانٍ.

- إنه جرو من سلالة كوفاز «Kuvasz»، أتعرفها؟

- نعم -أجبته. وهي تنحدر من التّبت، واليوم بات يمكن العثور عليها في بعض مناطق أوروبا الشرقية أيضاً.

- لقد رأى الرّجل أنني سأحسنُ الاعتناءَ به- شرحَ وهو لا يزال يتأمّلُ

رفيقه الجديد ويلاطفه. سوف أسميه آلاس[1] Alas، إحتفاءً بذكرى صديقي الطيّار، فهوَ ناصع البياضِ شديد الرقّةِ مثل السُّحب.



اكتسبَ صوته حلاوةً لم ألحظها فيه من قبل. وهكذا استقللْنا ثلاثتنا السيارة وتابعنا مسيرتنا مطمئنّي البال صوبَ الفندق الصغير حيثُ كنا سنقضي الليلة. ومنذ ذلكَ الحين أخذ الأمير الشابّ يستعيدُ بهجته الطبيعية بسرعةٍ مذهلة.

بعد العشاء، نجحنا في السماحِ لآلاس بأنْ يشاركنا الغرفة. ولم يهدأ الجرو إلّا عندما اصطحبه رفيقي الشابّ إلى سريره وضمّه إلى صدره. وما هي إلّا لحظاتٌ حتى غلبهما النّعاس. وارتسمت ابتسامة طفيفة على وجه الأمير الشابّ فعرفتُ عندها أنّه قد أقلعَ محلّقاً في أحلامه، وأنّ آلاس كانَ بصحبته.

---

(1) الكلمة بالإسبانيّة تعني «أجنحة».

الفصل 12

في صباح اليوم التالي استئنفنا طريقنا باكراً، دَهِشيْنِ لهذه الرّحابة التي أخذت تتكشّفُ أمام أعيننا. فعلى الرغم من القحطْ، لم يكن المشهدُ يخلو من جاذبيّة، ربما لأننا كنّا مُهيّأَيْن من الدّاخلِ للافتتانِ به. كانَ الأمير الشابّ شاردَ الذّهنِ يلاطفُ آلاس المستدفىء في حجره. وقد لاحظتُ أن شيئًا ما يقلقه، لكنّني احترمت صمته. وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى تكلّم أخيراً:

- لا أريد أن أكون إنساناً جادًا.

- هذا جيّد. أجبت.

- لكنْ عليّ أنْ أكبر-أردف قائلاً.

- هذا صحيحٌ في الواقع- أجبتُ موافقاً.

- في هذه الحالة، كيف يمكنني أن أكبر دون أن أتحوّل إلى شخصٍ جاد؟ سأل الأمير الشابّ مفصحاً عن الخاطرِ الذي كانَ يشغل باله.

- وهذا سؤال آخر جيّد-أجبت. جيّدٌ إلى حدّ أنني لم أعثرْ له على إجابةٍ شافية. في صبانا نخرج إلى العالم، عالمٍ مختلفٍ إلى حدٍّ

بعيدٍ عن ذلك الذي عرفناه حينَ كنّا نعيشُ في ظلِّ آبائنا- على الأقل نحنُ الذين حالفنا الحظُّ بأنْ نجدَ من يروي لنا حكاياتِ الجنيّات ذوات القوى السحريّة وقصص الأمراء والأميرات في القلاع المسحورة-. وبخروجنا إلى العالم نلقى الأنانيّة وسوء الفهم والعدوانيّة والخداع. فنحاولُ الدفاع عن أنفسنا والحفاظ على براءتنا، لكنّ الظلم والعنف والسطحية وغيابَ المحبّةِ تذيقنا أصنافاً من العذاب. ولهذا فإنّ أرواحنا، وعِوَضَ أن تبثَّ النور والسعادة حولها، تنتابها رعدةٌ أمام الواقعِ الذي يداهمها بلا هوادةٍ ولا رحمة. ينجح بعضٌ منا في التخلّي عن كنز أحلامه ويقيمُ حياته في ظلّ الأمان الوهميّ الذي يصوّره له التفكير العقلانيّ، ويتحوّلون هكذا إلى أناسٍ جادّين، عاشقينَ للأرقام والرّتابة، لأنّهما يحقّقان لهم الأمانَ في الظاهر. ومع هذا كلّه، وحيثُ أنّ الأمان لا يكتمل مطلقاً، فإنّهم لا ينجحون في بلوغ السعادةِ التي ينشدون، فيأخذون يراكمون الأشياء، لكنْ يبقى شيءٌ ما ينقصهم إلى الأبد. « فالتملّك» لا يجعل منهم أناساً سعداء، لأنه يسلبهم «الكينونة». إنّهم يبالغون في التركيز على الوسائل مهملينَ الغايات.

- ولماذا إذن يقضي الكبارُ جلّ حياتهم في مراكمةِ الأشياء والمزيدِ منها- ما دامَ ذلك لا يجعلهم سعداء؟ سأل الأمير الشابّ بمنتهى المنطقيّة.

- الاعتقاد بأنّ السعادة تتوقّفُ على امتلاكِ الأشياء ما هو إلّا خداعٌ ذاتيٌّ بهدفِ تهدئةِ النّفس. فحينَ يغدو امتلاكُ الشيء أو الافتقارُ

إليه شغلنا الشاغل، فإنّ بحثنا يتّجهُ أبداً نحو أشياءَ خارجنا، وهو ما يحولُ بيننا وبين النّظرِ في دواخلنا. قد نغدو سعداءَ باتّباعنا هذه الطريقةَ في التفكير، لأنّها تمكّننا من الحصولِ على هذا الشيء أو ذاك. لكنّنا بذلك لن نتغيّر أبداً.

- أوَلا يدركُ الناس ذلك؟ سأل الأمير الشابّ- غيرَ مُصدّقٍ أنّ الإنسانية يمكن أنْ تعمى عن شيءٍ كهذا.

- الحكايةُ، يا صديقي الشابّ، هي أن مجتمعنا قد ضاعفَ كمَّ الأشياء يسيرة المنال، على نحوٍ يجعلُ الناس لا ينتبهون إلى أنهم قد سلكوا الطريقَ الخطأ إلّا حينَ يعجزون عن الحصولِ على آخرها. وتعلمُ كيفَ أنّهم يتشبّثون بأيّ فرصةٍ، مهما ضؤلت، كي يرُجئوا لحظةَ اعترافهم بخطئهم ويغيّروا مسارهم. والمشكلة أنهم حينَ ينجحون في الحصولِ على هذا الشيء الأخيرِ المرغوب، يكونون قد فقدوا بعضًا مما كسبوه في البدايات، مثلَهم مثلُ لاعبي الخفّةِ الذين يطيّرون القبّعاتِ السبعِ لتبقى عالقةً جميعها في الهواءِ دون أن يسقط أيٌّ منها أرضاً. وهم يفعلون ذلك بسبعٍ منها فقط! أمّا الناسُ فتجدهم لا يعرفون ماذا يريدون إلّا تَدرّجاً، بحيثُ ما كانَ يُفتَرضُ أنّه آخرُ أهدافهم لا يعودُ كذلك بعد حين، فتجدهم يهدرون حياتهم في رحلةِ بحثٍ عقيمةٍ متقافزينَ من شيء إلى آخر، كما لو كانت تلك الأشياء حصى في نهرٍ لن يعبروه أبدًا. وغالباً، فإنّ أولئك الذين يسعون إلى الحصول على الأشياءِ والمزيد منها يظلّون واقعينَ

فـي شـرَكِ المسـتقبل، فـلا يشـعرون أبـدًا بالحاضـر ولا يتمتّعـون بـه لأن انتباههـم مُنصـبٌّ دومـاً علـى أمـرٍ ينبغـي إنجـازه فـي المسـتقبلِ.

- وماذا في وسعهم أنْ يفعلوا بدلاً من ذلك- سأل صديقي الشابُّ وهو يداعبُ آلاس النائمَ-مازال- في حجره.

- ليسَ عليهم سوى الغوْص في عمقِ الكينونة مستسلمين لتيّارها يحملهم حيثما شاء، وأنْ ينكبّوا على العيشِ، ويشعروا ويحبّوا في كلّ لحظة، وألا يدعوا الهدفَ النهائيَّ من الرحلة يستحوذ عليهم، فمعنى الحياةِ في نهايةِ المطاف، وعلى وجه الدّقةِ، ما هو إلّا أنْ تجرّبَ وتُحسّ. وحينَ تعترضهم العقبات، يمكنُهم أن يتغيرّوا ويتخذوا أشكالاً جديدةً تصقلُ جوهرهم أكثرَ فأكثرَ، مثل النهر الذي يغيّر بلا كلل اتجاه مجراه واتساع قاعه. الأهمُّ هو أن نكون منتبهينَ واعينَ إلى أقصى حدّ، وأنْ تظلّ حواسّنا يقظة. وألّا تُمسَّ قدرُتنا على الحبِّ مثقال ذرّةٍ، كي يتسنّى لنا أنْ نكونَ ونتمتّعَ ونبدع هنا والآن، دون أنْ نسقطَ في شرَكِ الماضي أو المستقبل.

- هل ينبغي علينا إذن أنْ نهجرَ ذكرياتنا؟ - تدخّل الأمير الشابّ فجأة، ربّما لأنّ ذكرياته مع صديقه ومع الزهرةِ كانت عزيزةً جدّاً على قلبه.

- كلّا، فكل ما تحمل معك من ذكريات جميلةٍ وتجاربَ سّارةٍ سوف تجد فيه سلواك في أوقاتِ ضيقكَ أو حينَ تشعر بالوحدة. ما يجب عليك تجنّبه هو التشبّثُ بهذا الماضي بوصفه مكاناً آمناً،

لأنّكَ قد تظلُّ عالقاً فيه رافضاً أن تخوضَ تجارب الحاضر. والماضي آمنٌ لأنه منغلقٌ على نفسه، وميّت. ومع هذا فإنّك تجدُ من يُؤثرُ سكينةَ الموت وأمانَه على لا يقينيّةِ الحياة، مع ما تنطوي عليه من احتمالات الألم والمتعة.

ومرّت لحظةٌ صمتٍ ثمّ أردفت قائلاً:

- ثمّة طريقة أخرى تتآمرُ بها الذّكريات على سعادتك الرّاهنة، وذلك بأنْ تجعلكَ ترغبُ في استحضارِ الأحساسيسِ نفسها التي خبِرتها في الماضي، وهو ما لا يتحقّقُ لك أبداً. فمثل ماء النهر لا يكون هو نفسه في أيّ لحظةٍ، لا تتكرُّر المواقف في الحياة كما هي بالضبط. ومع ذلك فإنّكَ لتعجبُ من كمّ الأشخاصِ الذين يسقطون في شَرك الماضي وهم يحاولون أنْ يعيشوا من جديدٍ التجارب ذاتها. إنّ هذا يحرمهم التمتع بتجاربّ جديدة لا تقلُّ إمتاعاً عن سابقتها أو ربّما تفوقها متعةً، والإنسانُ في هذا أشبه بذلك الحيوان الذي يعود مرارًا وتكرارًا إلى حيثُ وجد الطعام أوّلَ مرة، وهو على هذا الحالِ إلى أنْ يهلك جوعاً، لأنّه ببساطةٍ لم يذهب لاستكشافِ أماكنَ أبعد.

مرّت لحظاتٌ طويلةٌ بقي فيها كلٌّ منا غارقاً في أفكاره لا يصرفه عنها شيءٌ، إذ كانَ المنظرُ الطبيعيّ من حولنا قد منحَ تأمّلنا أرضيّته المثلى.

وحينَ تحدّثَ الأمير الشابّ أخيرًا، فاجأني بالقول:

- شكراً.

- لماذا تشكرني؟ سألتُ.

- لأنّكَ انتشلتني من التعاسة- أجاب.

- ما الذي تعنيه بذلك؟ أردتُ أنْ أعرف.

- كنتُ أفكّرُ بما قلتَه وأكتشفتُ أنّ ثمّةَ شاغلاً متجذّراً بعمقٍ في ذهني: وهو أننّي لن أعودَ سعيداً حقّاً إلّا حينَ أعثرُ على صديقٍ آخر مثلَ صديقي الذي أحنّ إليه. وهذا الشاغل ينطوي على العقباتِ الثلاث التي تقفُ في وجه السعادةِ وكنتَ قد ذكرتَها لي من قبل. الأولى هي حاجتي إلى « إنسانٍ مثله»، وهو ما يجعلني لا أجدُ ضالّتي في أناسٍ مختلفينَ عنه حتّى وإنْ كانوا يضاهونه نُبلاً وتميّزاً. والثانيةُ هي مسألةُ «اليقين»، إذ لا يمكنني أبداً أنْ أمتلك اليقينَ التامّ بأنّي قد عثرتُ على من هو مثله تماماً. وأمّا الثالثة فهي «البحث»، والذي يجعلني أتعلّق بحدثٍ مستقبليّ، بإنسانٍ قد يتسنى لي معرفته مستقبلاً، بحيثُ لا أقدّرُ مَن هم إلى جانبي في اللحظةِ الحاضرةِ حقّ قدرهم.

- أرى أنك فهمتني على أكمل وجه، اعترفتُ ممتلئاً بذاك الفخر الذي يشعر به المعلّمون أمامَ أنجبِ تلاميذهم.

- لا يمكن للمرء أنْ يكون يقظاً بما يكفي طوال الوقت. قال الأمير الشابّ.

- كلّا، أبداً، كرّرتُ القول، وابتسم كلانا.

وفي تلك اللحظةِ طالعتُ في ملامحه أثراً من حزنٍ خمّنتُ أنّه يعودُ إلى الماضي، لكنّي التزمتُ الصّمت وقرّرت الانتظار حتى ينكشف لي الأمرُ من تلقاء ذاته.

وفيما كانت السيارة ماضيةً على مهلها في التهامِ الطريقِ كما لو كان عودَ معكرونة رمادياً لا نهايةَ له، شعرتُ أن توقيَ إلى الوصول قد أخذ يتلاشى، حيث بدأتُ أستمتع بكلّ لحظة من الرحلة.

الفصل 13

حينَ اقترب موعدُ الغداء، وخوفًا من أن يترك آلاس هديّةً باذخةً على معطفِ صديقي، قرّرت التوقّف عند مطعمٍ ظهر فجأة على جانب الطريق، كانت تقفُ أمامه بعض السيّارات. عند الدخول، لاحظتُ حولَ مائدةٍ عائليّة خمسةَ أزواجٍ من عيونٍ طفوليّة تحدُّق ذاهلةً في رداء الأمير الشابّ. توجّهتُ من فوري إلى طاولةٍ في الطرف الآخر، لكنّ هذا لم ينجح في احتواء الجلبة القويّةِ من حولنا، فقد بدا الأمرُ وكأنّ أحد ملوك المجوس الثلاثة قد دخل من دون ناقته. لاحظتُ أن ردّ فعل الأطفال قد أربك صديقي الذي كانَ جالساً مديراً ظهره لهم جميعاً. ولم تُسفر الجهود التي بذلها الأب لتهدئتهم، ملوّحاً بفخذ الدجاجة بيده، عن نتيجةٍ ملموسة، فقد كانَ هو نفسه يحاول حلّ لغز مظهرنا اللّافت. أمّا الأمّ التي كانت مديرةً ظهرها لنا فقد استمرّت تتناولُ طعامها دون أدنى قلق، كما لو أنّها تصمُّ أذنيْها عن قصدٍ لتعزل نفسها من وقت لآخر عن الجلبةِ الفاضحة الصادرة عن تلك المخلوقات الشيطانيّة. وقد حرصتُ أثناء تناولنا الطّعامَ على تعزيز الثقةِ بالذات لدى صديقي المتأثّرِ قليلاً بما واجهه من ردّ فعلٍ على أمرٍ بالغ التفاهةِ مثل الثياب.

فحدّثته عن أهمية الاختلاف والتنوع، وكيفَ أنّهما الطريقةُ الوحيدةُ لإثراء أيّ جماعةٍ بشريّة.

- لو لم يكن في مقدورنا تمييز الزهور بعطرها أو شكلها أو لونها، فلن نتوقّفَ أبدًا لنتأمّلَ واحدة منها على وجه الخصوص. فالاختلاف - أردفتُ - هو أول ما يجذبُ انتباهَنا، وإعجابُنا بالزهرة هو ما يجعلها فريدة.

كنتُ في أعماقي أشعرُ بالأسفِ لحقيقةِ أن تلك الأشياء التي تجذِبنا وتُكمّلنا تُستخدمُ هي نفسها أحياناً من أجل زرعِ الفرقةِ والانقسام بيْننا. وإذ شرعنا في التهام طبق شهيٍّ من اللحم المشويّ مع البطاطا والسلطة، شرحتُ له كيفَ أن العديدَ من عباقرة البشرية عانوا من رفض معاصريهم، مع أنّه لولا هذا التنافر لما تطورت البشرية. وانتقدتُ ضحالةَ أولئك الذين ما إنْ يروا شعلة إبداعٍ تُضاءُ في مكانٍ حتّى يندفعوا لإخمادها كأنهم فرقةُ إطفاء، عوضَ أنْ يسمحوا لها بالتنفّسِ كي تذكي نارَ التغيير.

- صديقي العزيز، قلت رابتاً على كتفه- عليكَ أن تغفر للناسِ ردّ فعلهم الأول، أعني توقُّفَهم عند المظهر الخارجي. لكنّكَ إنْ كنت واثقاً في نفسك وفي القيم التي تهتدي بها، فلسوفَ يتقبّلونك في نهايةِ المطاف، حتّى وإن كانَ ذلك من بابِ التباهي أمامَ أصدقائهم بأنّهم على معرفةٍ بشخصٍ فريدٍ مثلك – ثمّ أردفتُ، وقد اعتدلتُ في جِلستي: هنالك بالطبع طريقةٌ أبسط وأسهل للتواصل مع الناس ...

- وما هي هذه الطريقة؟-أرادَ الأمير الشابّ أنْ يعرف، وقد جذبه الحديثُ أكثرَ.

- أنْ تفعلَ ما هو عكسُ ذلك بالضبط.- أوضحت له- فعوضَ أنْ تجذب انتباههم إلى المظهرِ الخارجي ثمّ تسعى لأن يتعرّفوكَ كما أنت من الدّاخل، يمكنك أنْ تختارَ الامتزاجَ بهم وتقليدَ مظهرهم ثمّ الكشف لهم فيما بعدُ عن تميّزكَ وفرادتكَ بما تحمله من قيم.

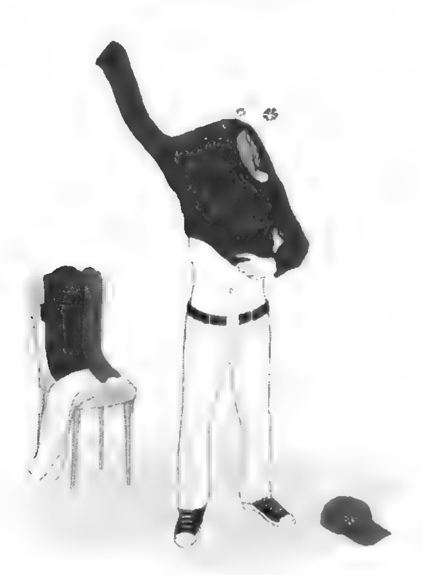
- وأنت؟ ماذا كنتَ لتفعل؟- سألني وهو يحدّقُ فيّ. ففكّرت قليلاً قبل أنْ أدليَ بإجابتي:

- في الحالة الأولى، سوف يتقرّبُ كثيرٌ من الناس إليكَ أو يبقون على مسافةٍ منكَ وفقاً لما يبلورونه من أحكامٍ مُسقبةٍ عنكَ، إيجابيةً كانت أمْ سلبيّة، دون أن يعرفوك حقّ المعرفة، مستندينَ في ذلك إلى مظهرك وحسب. أحسنُ ما في هذا الأمر أنّكَ ستجذب انتباه كثيرٍ منهم، وأسوأ ما فيه أنَّ بعضاً منهم سيبتعد عنك إلى الأبد. وأمّا في الحالة الثانية، فإنّك لن تجذب انتباه الآخرين، بل إنّ كثيراً منهم لن ينتبه حتّى إلى وجودك، أو قد يفعلُ ولكن متأخرّاً جدّاً. ولو كانَ القرارُ لي، لاخترت المسار الثاني، الأشدّ سريّةً وبطئاً ربّما، لكنّه الأعمق مع ذلك. ولكنْ ما يهمُّ هو ألّا تكفّ، في أيّ من الحالتيْن، عن أن تكون نفسك ابتغاءَ التكيّفِ مع أذواق الآخرين.

- ألا تخشى عندها أنْ تضيعَ رسالتك وألّا يكتشف كثيرٌ من الناسِ أنك قد مررت بهذا العالم؟- سأل الفتى.

لاحظتُ أنّه كانَ يحاولُ مداراة خوفه من ألّا يعثرَ على الإنسانِ الذي كانَ يبحثُ عنه. وأتذكر أنني أجبتُه بكوني لا أؤمن بعظمة أي شخصٍ ما لم يقرّ له بها معارفه من الناس، لأنّك إنْ نجحتَ في نقلِ رسالةٍ مهمةٍ حقًّا، ولو إلى الجماعة الصغيرة التي تحيط بك، فكنْ على يقينٍ بأنّ هذا النور الصغيرَ الذي بثثْته بوسعه أنْ يشقَّ أفقاً وسط الظلمات، مِثلَ وهج نجمةٍ بعيدةٍ حينَ يخترقُ آلاف الأعوامِ من الظلمات كي يصلَ إلينا.

- وأمّا عن النّاس- أضفتُ بنبرةٍ قاطعةٍ محدّقاً في عينيه- فأنا على قناعةٍ بأنّنا لا بدّ من أنْ نلتقيَ في طريقنا بمن جعله القدر من نصيبنا. وما علينا إلّا أنْ نتعرّفه ونميّزه من بيْنِ الآخرين.



وهكذا كان أنْ قرّر الأمير الشابُ تبديلَ ثيابه، وحينَ خرجنا من متجرٍ صغيرٍ في المدينة، كانَ يرتدي ملابس شبابيّة وحذاءً رياضيّاً وقبعةً بالمقلوب تخفي تحتها خصلاتِ شعره الجميلِ الذهبيّة. وما من أحدٍ كانَ ليميّزه من بين مئات آلاف الفتيان من جيله.

- مهما يكن، فقد وُلدتَ أميرًا- قلتُ مُبتسماً، ومحاولًا أنْ أشعره بالخصوصية وهو يتوغّلُ للمرّةِ الأولى في عالمنا، عالمٍ من تعاساتٍ وأعاجيب. لكنه أجاب:

- جميعنا نولَدُ أمراء، بعضنا يجهلُ ذلك وبعضنا ينساه ... مملكتي موجودةٌ داخلي. ثمّ أخذ يركضُ وراءَ كرةٍ انفلتت من مجموعة صِبية يلعبون في الشارع، فيما كانَ آلاس يطارده محاولاً أن يلحق كاحليه.

أودُّ، يا عزيزي القارئ عند هذه النقّطةِ، أن أتدخّلَ طالباً منكَ ومن أصدقاء الأمير الشابّ أن تغفروا لي، فمن الآن فصاعداً سيستحيلُ تمييزه من النظرة الأولى. وإنْ كنتُ أعلمُ مع ذلك، أنْ لن يُخطئه من كانت عيْنُ قلبه مبصرةً مفتوحةً على اتّساعها.

الفصل 14

حينَ عدنا إلى الطريق، التفتَ إليّ الأمير الشابّ قائلاً:

- أخبرني من فضلك، كيف نجحتَ في ألّا تصيرَ شخصاً جادّاً.

كان يبدو أنّ فكرةَ النضج بما ينطوي عليه من تحوّلاتٍ تشغله كثيراً.

- كنتُ قد بدأت أصفُ لكَ-قلت- كيفَ يتخلّى بعض الناس عن أحلامهم ومُثلهم العليا كي يتفرّغوا لامتلاك الأشياء والمزيد منها، كما لو كانَ النفوذ والتملّك يمنحانهم الأمان. وأحياناً يكون سعيهم إلى النجاح والاعتراف بمثابةِ هروبٍ إلى الأمام، لأنّهم افتقدوا شجاعة أن يكونوا أنفسَهم، وأن يواجهوا النّقدَ والرّفضَ كي ينهضوا بمسؤوليّة ذواتهم الحقيقية ويتبعوا نداء روحهم الأصيل. وأحياناً أخرى تجدهم مهووسين بالسيطرة، يتلاعبون بالواقع ويشكّلونه وفقاً لأهوائهم. ويصدرون الأحكامَ على الآخرين ويصنّفونهم، ويحشرونهم في قوالبَ جسديّة وعقلية ضيّقةٍ لا يكادون يتحركون داخلها. وبهذه الطريقة فإنّهم يعطّلون طاقة التحوّل الخصبة التي يجود بها الكون والحبّ الإنسانيّ بلا حدود. ولو أنّ الآباء يجتهدون

في تنشئة أطفالهم على الحب، بقدرِ ما يجتهدون في مطالبتهم بالتزام النظام والانضباط، لغدا الكوكبُ مكاناً للعيشِ أجمل بكثيرٍ ممّا هو عليه.

- أتريدُ القولَ إنّ كثيراً من الانضباطِ ليسَ بالأمرِ المحمود ؟سأل الأمير الشابّ.

- ما يُرادُ عادة بكلمة الانضباط هو فرضُ معنانا الخاصّ بالنظام- وهو إنسانيٌّ ومحدود- على المعنى الذي تعطيه الطبيعة له، وهو معنىً إلهيٌّ بقدرِ ما هو متسامٍ. ويجبُ على الإنسان أن يحذرَ أشدّ الحذرِ من تنظيمِ الطبيعة وفقاً لمصلحته الخاصة، لأنّ النتيجةَ التي يجنيها عادةً ما تجيء عكس المنشود: اختلالٌ في نظامِ الطبيعةِ يصبُّ في غيرِ مصلحته، وما تلوُّث الكوكبِ وانقراضُ الأنواع النباتيّة والحيوانيّة ونفادُ الموارد الطبيعيّة، وغيرُها من الظواهر، سوى تجليّاتٍ سلبيّةٍ للانضباط والنظام الإنسانيّين.

- أفهم ما تقول- أومأ الأمير الشابّ برأسه وبدا غارقاً في فكره.-كنتُ قابلت في رحلتي السابقة رجلاً زعمَ أنّه كانَ يسيطر على النجوم. وقد أمضى أيامه في عدّها وجمعها، وكانَ يكتب النتائج على قطعة من الورق ويضعها في درجٍ، معتقداً أنه، بهذه الطريقة، يمتلكها.

- أرى أنّك لاحظت إلى أيّ حدّ يحبُّ الناسُ الجادّون الأرقام. إنّهم لا يكتفون أبدًا -أردفتُ – إلّا حينَ يعرفونَ بدقّةٍ كم يبلغ ارتفاعُ

الجبل، أو عددُ ضحايا حادث، أو القدْر من المالِ الذي تجنيه في كلّ عام، هذا على سبيلِ المثالِ لا الحصر. مع أنّنا في الواقع لا نملك شيئاً على الإطلاق خارج أنفسنا.

- وقد سمعت أيضاً أنّ الناسَ على هذا الكوكب يُنَظَّمون عبرَ منحهم أرقاماً. قالَ في فزعٍ. وقد ذكّرني تعليقه بأرقام جواز السفر وأرقام الضمان الاجتماعيّ والهواتف وبطاقات الائتمان ...

- هذا صحيح. يوجد الكثير من الناس على **الأرض**، ويبدو أنه ما من وسيلة أخرى لتحديد هويتنا. الأسماء وحدها لا تكفي ... أجبت بشيءٍ من الحزن.

- أرني أين تحتفظُ بأرقامك- قال الأمير الشابّ بفضول، منتظراً أن أكشف له عن جزءٍ من جسدي.

- كلا، إنّها ليست منقوشةً في أي مكان من جسدنا- أجبته مبتسماً وأنا أطلعه على بعض الوثائق في محفظتي. وسرعانَ ما انقبضت أساريري حين تذكّرت فجأةً بعضَ أمثلةٍ بغيضةٍ على ما أنكرْته توّاً، وهي حالاتٌ يشقُّ عليّ وصفها.

- ربّما أمكنَ للشيفرة الجينّية في المستقبل القريب أن تحدّد لنا هويّتنا عبرَ مفتاحٍ فريد وشخصيّ. وأسأل الله ألّا يؤول ذلك إلى تقييد حرية البشرِ جميعاً. جازفتُ بالقولِ مُفكّراً بصوتٍ عالٍ.

- ماذا تقصد؟ سأل الفتى حينَ لمح القلق في صوتي.

- أقصدُ أن الله قد خلق الإنسان كائناً روحيّاً، بشرارة من إرادةٍ حرّة

ووعيٍ بذاته، وبتلك القدرة على التخيّل والتفكير، والتي نسميّها الروح. ولهذا فإنّنا نحنُ البشرَ لا نستطيعُ تقديم أفضل ما لدينا، مثل الحب أو الإبداع، ما لم نكن أحرارًا.

-الله؟ من هو الله؟ كنتَ قد تحدّثت عنه من قبل كما لو كان السبب في كثيرٍ من الأشياء التي تحدث هنا، أو كما لو كان قادرًا على حلّها.

- من **هو**؟ لا أعرف حتى إنْ كان يجدرُ بنا أن نسأل «من **هو**؟» أو «ما **هو**».

- لكنّك تتحدث عنه ...

- أجل ، أجل – قاطعته قائلاً- وكيف لي ألّا أتحدّث عنه ...؟ تنهّدتُ عميقًا تاركاً لبضع دقائقَ من الوقت أنْ تمضي، بينما الأمير الشابّ يرمقني بنظراته الذاهلة- لو كنتُ أعرف ما هو الله، لعرفتُ كلّ شيء آخر، قيلَ إنّه هو ما هو، بمبدئِه ومنتهاه، وهو بذلك بدايةُ كل ما هو موجود وغايته. من الناسِ من تخيّله على أنه عَوْدٌ أبديّ، تعاقبٌ لا نهائيٌّ من نتائج وأسباب. – ومنهم من عرّفه-بناءً على أفكاره الخاصة عن الكمال- بأنه الخيرُ أو الجمال، وآخرون يسمّونه **الكلمة**، والخالق، والحقّ، والحكمة العليا.

- يقالُ- علّقَ رفيقي في السّفر-إنّ ما يجهله البشرُ عن الله أكثرَ بكثيرٍ مما يعرفون.

- وأنا أعتقد ذلك أيضًا، لأن الذكاء البشري المحدود غير قادر على

إدراك فكرةٍ لا نهائية . وأشدّ ما يخجلني أنّ الناسَ، في غمرةِ جهلهم، ما زالوا إلى اليوم يقتتلون بسبب اختلاف إجاباتهم عن هذا السؤال – بدا الأميرُ الشابُ مصدوماً بسماع ذلك، فابتسمتُ لأهدّىء من روعه - لكنْ لا تقلق، فأنا لستُ فظّاً إلى هذا الحدّ!

- وهل هناكَ أسئلةٌ أخرى يتقاتلُ الناسُ بسببها؟ سألني، راغباً في معرفةِ ما كان ينتظره على كوكبنا هذا، المتعّصب والعنيف.

- نعم، ثمّة الكثير منها، لكن ليس من بينها ما فاقم الكراهية مثل التساؤل حول الألوهيّة، وهو ما يدلُّ على ضعفِ تطوّر الوعي لدى الإنسان. بل وقعَ ما هو أسوأ في الآونة الأخيرة: لم يعد الناس يتساءلون عن الله بأذهانٍ صامتة في عزلاتهم، وكأنّه لم يعدْ يعنيهم البحثُ عن غايةِ حياتهم.

- وما رأيك أنت؟- سألني آملاً أنْ اُلقيَ بعض الضوء على مسألة تبدو في غايةِ الإرباك والغموض.

- أفضّل أن أحسَّ بوجود الله في داخلي، بوصفه حاجةً ملحّةً إلى الاتحادِ بجميع الكائنات الحيّة، وبكونه طاقةَ مُحبّةٍ تسندنا جميعاً ويتّكئ عليها الكونُ بأسره.

بدا أنّ هذه الكلماتِ قد منحته بعضَ الطمأنينة، فظلّ لبعضِ الوقتِ صامتًا متأمّلاً .

- أفترض أن الحيوانات هي الأخرى لا تقوى على تقديم خيرِ ما لديها إذا نحن حبسناها في قفص- علّقَ الشّابُ قائلاً وكأنّ ذكرى

الخروف حبيسِ الصّندوق قد مرّت بباله، فيما كانَ يمرّرُ أصابعه برفقٍ في فروةِ رأس آلاس النائم.

- هنالك من يحبسون أطفالهم أو أشخاصاً آخرين في أقفاصٍ قضبانها من أوامرَ وأعباءَ ومخاوف- فكّرت-، غيرَ مدركينَ أنّ كلّ ما يُفرَضُ فرضاً على البشر يستثيرُ مقاومتهم. وبهذا المعنى، فإنّ كل ما يُفضي إلى غيابِ الحركةِ وقتلِ العفوية يتعارض مع التجديد الذي هو سمةُ الحياة. وما أيسر أنْ نلاحظَ أنّه ما من شيءٍ في نهايةِ المطافِ أرسخ نظاماً ولا أكثر أماناً من مقبرة.

- أيعني هذا أنّ النظامَ غيرُ ضرويّ؟-سأل الأمير الشابّ وقد ظلّ الشّكُ يرواده.

- ثمّةَ نظامٌ خارجيّ يحتاج إليه كلّ منّا، بدرجاتٍ مختلفةٍ، كي يشعر بالراحة. لكنّ النّظام الذي يُعتدُّ به حقًا هو نظامُ الروح، الذي ينبغي أنْ يكون موجهاً نحو الله، لأننا **منه** أتينا و**إليه** نعود. ولا يتعلّقُ الأمرُ هنا بنظامٍ ثابتٍ، بل بتطور مستمرٍّ ونمو دائمٍ لكينونتنا الروحيّة.

- وكيف تسنّى لك معرفةُ هذه الأشياء كلّها؟ سأل، متعجّباً من قدرتي على إيجاد أجوبةٍ لأسئلته.

- بفضل تجربتي وحدسي-أجبت.

- وكيف تعرف أنّك على صواب؟

- بفضلِ تجربتي وحدسي-كرّرتُ القول.

- أوَلا تخطئ أبدا؟ سألني مبدياً إعجابه.

- بالطبع أخطئ، ثم أضيف هذا الخطأ إلى تجربتي. فكما ترى، لا أستطيع القولَ إن ما أؤمن به حقيقةٌ مطلقةٌ، بل مجرّدُ معرفةٍ أعانتني على هذه الحياة. وقد يكون عليك أن تفعل الشيء ذاته. فلا تصدّق شيئاً مما أقوله لك. فقط تلقّاه ثمّ انظرْ إنْ كان يجديكَ نفعاً.

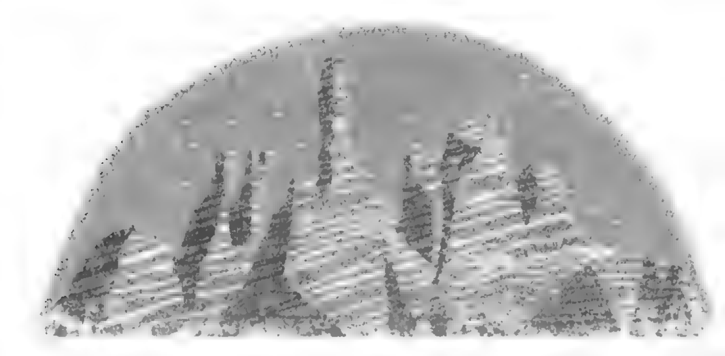
- ومن أين عسايَ أن أعثرَ على هذه التجربة؟ أرادَ الأمير الشابّ أنْ يعرف.

- لقد تشكّلت تجربتي في الحياة-أجبت-من تراكمِ اللحظات التي ارتكبتُ فيها أخطاءً وبفضلِ قدرتي على تجاوزها. وإنْ كنتَ ذكيًا، استطعتَ أيضاً أنْ تُدرجَ في تجربتك الأخطاء التي ارتكبها آخرون، فلا يكون عليكَ أنْ تكرّرها. فالكتبُ والمعلّمون وقصص الآخرين يمكنها أنْ تشقَّ لكَ آفاقاً، ويعودُ لك القرارُ في آخرِ الأمرِ بشأنِ أيّ من هذه المعارف ترغبُ في الاحتفاظ به.

قرأتُ تعبير وجهه، فأدركتُ أن كلّ ما أوردتُه بدا له غامضاً بعض الشيء. لا ريبَ في أنّ الشباب يتعلّمون عبرَ أفعالنا ومواقفنا أكثر منهم عبرَ كلماتنا.

عند هذه اللحظة، بدأ الطريق يتقدّمُ محاذياً النهر الذي كان يمتدّ متعرّجاً في قاع الوادي السحيق. وعلى كلا الجانبين، كانت مرتفعات جبال الأنديز تعرضُ أمامنا تشكيلاتها من الصخورِ الغريبة وغير

المنتظمة. وقد لفتت إحداها انتباهنا: كانت صخرةً مرتفعةً تطاولُ السماءَ ممتدّةً من حافّة تل. وكانت لافتةٌ تشيرُ إلى اسمها: «إصبعُ الله».



ابتسمتُ حينُ فكّرتُ في أنّ السكان المحليّين قد سارعوا إلى منحها اسمًا مقدّسًا قبل أنْ يخطرَ في بال المسافرين تشبيهاتٌ من نوعٍ آخر.

أمّا من جهتي، فكانَ من الأسهلِ لي أن أتخيّل- مثلما فعل مايكل آنجلو في كنيسة سيستين- إصبعَ الله يهبط نحو البشرِ وليس العكس. وفي تلك اللحظة حضرَ في ذهني المثالُ الذي كنت أحتاج.

- التجربةُ- قلتُ فإذا بصديقي يلتفتُ نحوي- أشبهُ ما تكون بالخريطة. وهيَ لسوء الحظ، خريطةٌ غير مكتملة حينَ يتعلّقُ الأمر بالمستقبل. من أجل هذا، عليك في كلّ يومٍ أنْ تقرَّ الافتراضات التي ثبتت صّحتها وتتجاهل ما عداها .

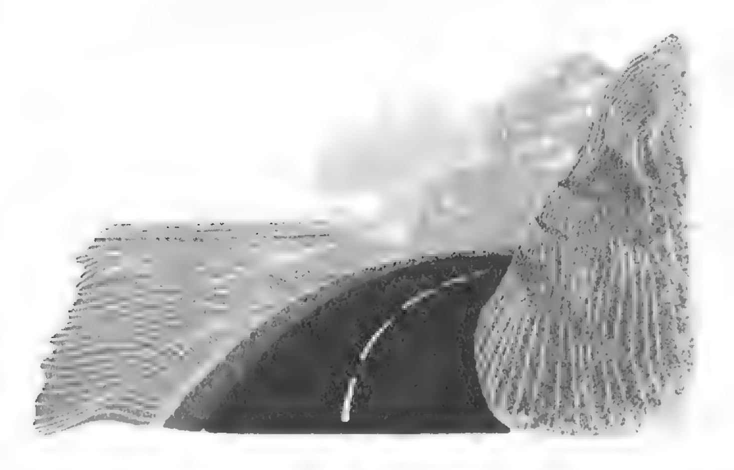
- وماذا عن الحدس؟عاد الأميرُ الشابُّ يسأل بلا كلل. واتّضح لي أنّه لا وجودَ، في تلك السيّارةِ، لأيّ مخلوقٍ يهنّئني على براعةِ ما أضربُ من أمثلة.

- الحدس هو أول تصوّر لديك عن شخص أو موقف، ويكون صائباً في العموم. لكن لسوء الحظ، فقد بولغَ في الإعلاء من قدر المعرفةِ المتأتيّةِ من الاستدلال العقليّ، على ما يعانيه من بطء. وهو إنْ كانَ يصلحُ في مجال العلوم، فليس من السهل تطبيقه في المسائل الإنسانية. وفي المقابل، فإنّ المعرفة الحدسيّةَ فوريّةٌ وتامّة.

- أعتقد أن زهرتي كانت تتمتّعُ بقوّة الحدس- علّقَ قائلاً- فقد كانت تعرفُ الأشياء قبل أن أطلعها عليها. ولعلّ هذا هو السبّبُ في أنّ البشرَ والزهور لا يتفاهمان أحياناً فيما بينهما.

الفصل 15

كنتُ غارقاً كلياً في متعة السياقةِ على طول الطريق المتعرج، الذي صار يحاذي الآن شاطئ بحيرة بين غاباتٍ من الصنوبر. كان صوتُ المحرّك الرجّاجُ يعلو مع كل تبديلٍ لغيار السّرعة كأنه رعشةٌ في عموديَ الفقري. وفي تلك اللحظةِ العزيزةِ على قلبِ محبّي



السيارات والسرعة، هبطت عليّ مداخلةُ الفتى المفاجئةُ مثل هطولِ ثلجٍ في الربيع.

- كنت تحدّثني عن الأناس الجادّين- ذكّرني قائلاً-ماذا تعرف عنهم أيضاً؟

- بعض الأشياء- تمتمتُ مُذعناً، فقد اعتقدتُ أنّ من غيرِ المجدي تنبيهه إلى أنّه قد قطع عليّ الاستمتاع بسيمفونية ميكانيكية لا مثيل لها. - على كلّ حالٍ، أردفتُ، كنتُ أنا نفسي على وشكِ التحوّلِ إلى عضوٍ بارزٍ في هذه الفئة البشريّة.

- وما الذي حال بينكَ وبين ذلك؟ أراد الأمير الشابّ أن يعرف، ذاهباً كعادته إلى صُلب المسألة.

- بتأمّل النّاسِ الجادّين من حولي- وكلّهم محترمون وناجحون- وجدتُ أن أيّا منهم لم يكن سعيدًا حقًّا.

- ستقولُ لي إن النظام والانضباط هما مصدر تعاستِهم؟ أليس كذلك؟ أصرّ قائلاً بشيءٍ من الدّهشة.

- كلّا - أجبته. ما يحدث هو أن الأشخاص الجادّين الذين يحبّون النظام غالباً ما يكرهون المفاجآت وكلَّ ما هو خارج عن سيطرتهم. وكلّما اتّسعَ نطاقُ السيطرة التي يمارسونها، قلّت متعتهم. فهؤلاء يروقهم العيش في عالم يسيرُ في مدارٍ مُحكمٍ يمكنُ التنبّؤ به، عالمٍ بلا سحرٍ ولا دهشة. فالتغيّرات، مهما قلّ شأنها، تثيرُ غضبهم أو قلقهم، وهما شعورانِ يخبّئُ واقعنا المضطرب احتمالاتٍ لا حصرَ لها لإثارتهما .

- ما تقوله يذكّرني بِمُشعلِ المصابيح الذي لم يكن قادراً على

الخروجِ عن رتابته- علّق الأمير الشابّ- فحينَ أخذ كوكبه يدور بسرعة أكبر، انقلبَ عمُله إلى جحيم.

- حسنًا- تابعتُ قائلاً- إن عبورَ هؤلاء الأشخاص في الحياة برّاقٌ وعابر مثل خبرِ نَعيِهم، حتّى وإنْ كانوا يراكمون العديد من الأوسمةِ والشهادات. ولا أحد يجرؤ على إضافة ملاحظةٍ في هامشِ النعيِ تقول: « ومع هذا كلّه، لم يكن سعيدًا». وحدها السّماء تخطُّ، بالنجومِ الهاربةِ، شاهدة القبر التي يستحقون على قبّتها.

- لا ينبغي لأحد أن يتفاخر بكونه نجمةً هاربةً. علّقَ قائلاً.

- كلّا، في الواقع، قلتُ موافقاً، ثم أردفت:

- إنهم مثلُ الشعلات الصغيرة سرعان ما ينطفئون، أو مثل اليراعات في ليل الزّمن. ثم هناك الأشخاص الآخرون – قلتُ مُسهباً في تأمّلي – من يواجهون الواقع وهم غير قادرين على التخلي عن مُثُلهم العليا (بوصفهم أشخاصاً جادين)، فيحاولون حمايتها إلى أقصى حدٍّ فينتهي بهم المطافُ مشيّدينَ حول أنفسهم جداراً لا طائل منه سوى أنّه يخنقُ أرواحهم. وأحياناً يكون هذا الجدار مُحكمَ البناءِ إلى حدّ أنّهم لا يعثرون فيه ولو على ثغرةٍ واحدةٍ يتسلّلون منها إلى العالم. فيظلّون في الخارج، مثل دمى بلا أسلاك تحرّكها، كأنّهم أشباحٌ لا يعرفون من هم، أو من أين أتوا و إلى أين يذهبون، يهيمُ عالمهمُ بلا هدف، إلى أنْ يغدوَ، مع مرور الوقت، بارداً مثل مذنّب تائه.

- لا أريد أن أكون مذنبًا تائهاً- علّق الأمير الشابّ، قبل أن يسأل:

- ما هو الشبح؟

- الشبح صورةٌ بلا محتوى، ظلٌّ، هيئةٌ بلا قوام، وأردفت-: ثمّة أشخاص يعتقدون أن الأشباح لا وجود لها. أما أنا، في المقابل، فأعتقد أنهم موجودون أينما كانَ وبكثرة، الأشباحُ في نظري، هم الناسُ الذين لا قلوب لهم.

- ولا أريد أن أكون شبحًا أيضًاً، فكّر الأميرُ الشابّ قائلاً، وقد زاد وعياً بما ينطوي عليه النضجّ من صعوبات.

- في هذه الحالة إذن، لا تخُن رغباتك أو تدفنها داخل نفسك إلى أنْ تموت من الحرمان. وتعلّمْ الجمع بين ما هو واقعيٌّ وبين ما تتوق إليه. وابذل قصارى جهدك في كل ما تفعل، حتّى تعكسَ فيه روحَك، وقدّم خيرَ ما لديك لكل إنسانٍ تعبيراً عن محبّتك له، وسترى أن العالم قد أصبح واحدةً من تلك المرايا المكبِّرة، يعكس لك كلّ ما قدّمته بلا مقابل ويعيده إليك أضعافاً. واعلمْ أنّ الطريقة الوحيدة لِتحيطَ نفسك بالابتسامات هي أنْ تبادر بالابتسام، كذلك فإذا أردتَ أنْ تطوّقَ نفسكَ بالحبّ فليسَ عليكَ إلّا أنْ تمنحه للآخرين. وستأتي لحظةٌ تجدُ فيها نفسكَ بين عالمٍ يتركّزُ فيكَ وفي طفولتك وبين عالمٍ آخر ينفتحُ على الغير، في مرحلةِ النّضج. آنذاك عليكَ أنْ تتخلّى عن نزواتك وقساوتك وأنانيّتك، كي تنموَ واثقاً من أنّكَ ستنتصرُ لأنبل المبادئ. أحِبْ نفسك، وبهذه الطريقة يمكنك

أن تحبّ الآخرين. أحبِبْ أحلامك، كي تتمكّن من أنْ تبنيَ بها عالماً دافئاً وجميلاً، مليئاً بالابتسامات والأحضان. سيكون عالماً ترغبُ في العيش فيه، يدورُ في مدارٍ زاخرٍ بالألوان. فإنْ آمنتَ بهذا العالمِ حقًّا ومضيْتَ تبنيه رويداً رويداً مع كلّ فعلٍ يوميّ، صار بيْنَ يديك. وسيكون ثواباً مستحقّاً لك على ما بذلت من جهد، فإنّني لم أر مطلقاً إنساناً قدْ تمتّعَ بسعادة لم تكنْ مستحقّةً له على أكمل وجه. إنّ الأشخاصَ الذين يحبُّون بحقٍّ هم وحدهم من يشبهون النجوم، ويظلّ نورهم يضيء لنا الدرب حتى بعد رحيلهم.

فقال وقد لمحتُ في نبرته التأثرَ والشغفَ:

- حين أموت، أريد أن أصير نجمةً. علِّمني كيفَ أعيش لأكون نجمةً – وأمالَ رأسه إلى النافذة معانقاً كلبه.

- قد لا يكون في وسعي أنْ أعطيكَ صيغةً دقيقةً، أجبته برفق-، فأنا لست أستاذاً في النجوم. وكلّ ما أستطيعُ تقديمه لك هو تلك الأشياءُ التي تعلّمتها في حياتي، حفنةً من الحقائق، وهي مثلَ كل الحقائق الأخرى، لا يمكن نقلها إلا عبرَ المحبّة. أنت، مثْلنا جميعًا، تحمل في داخلك القدرة على الحب وهذا كلّ ما تحتاج إليه. وحينَ يعتريك الشكّ، ابحثْ في أعماقك، وإذا كان لديك ما يكفي من الصبر، ستجد الإجابة دوماً.

لكنه لم يعد يستمع إلي ... ولربما اكتشف أنّنا، هنالكَ، في أرض الأحلام، بوسعنا جميعًا أن نكون أمراء ونجوماً.

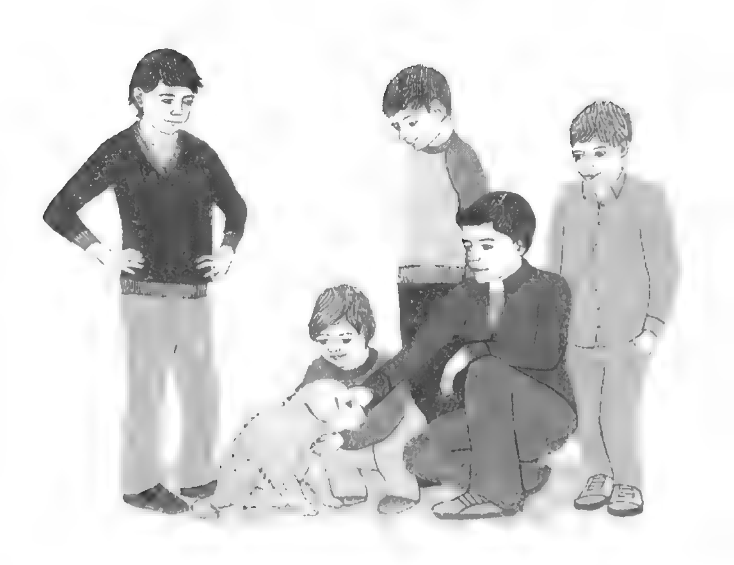
الفصل 16

في تلك الليلة مكثنا في نُزلٍ جميل على ضفاف بحيرةٍ، تحيط به غابةٌ مترامية الأطراف. كان بناءً من خشب وحجر، مزوّداً بمواقدَ جميلةٍ تطقطقُ فيها النار. وكانت كلّ حُجرةٍ مبطنةً بورق جدرانٍ زخارفه وألوانه مستوحاةٌ من اسمها. كان اسمُ حجرتنا «المرج»: لونها أخضرُ فاتحٌ مزخرف بنباتاتٍ وأزهارٍ بريّة. اقتضى نظامُ المنزل لسوء الحظّ أنْ ينام آلاس في تلك الليلة وحيداً في حجرة صغيرة. وعرفتُ أنه لن يكون من السهل على صديقي أن ينفصل جسديًا وعاطفياً عن ذلك الجرو.

حينَ نزلنا لتناول العشاء، لم يكن لوجودي في غرفة الطعام مع العائلة الصاخبة نفسها التي رأيناها وقتَ الغداء أن يستدعيَ دهشتي، إذ يندرُ وجودُ الفنادق في تلك المنطقة. ومن الطبيعيّ أنْ تُثيرَ لحظةُ دخولنا الجلبة نفسها التي أثارتها قبل ذلك بساعات، مؤكّدةً صحّةَ المثلَ القائل إنّ «رضا الناس غاية لا تدرك»، مهما فعلْت. وأثناء تناول العشاء، وربّما بسبب إجهاد الأطفال والكبار على السّواء،

أصبح الجو على مائدتهم مزعجاً إلى حدٍّ جعلنا نشعرُ بالضّيق في ظلّ الشجارِ والعنفِ اللذيْنَ خرجا عن السيطرة. كانَ الطفلُ الأصغر يبكي دون أن يفلح شيءٌ في مواساته. فيما كانَ الآخرُ مُعاقباً لا يُسمح له بتناول العشاء. وأُجبرَ ثالثٌ على إنهاء سمكة كانَ واضحاً أنّه لا يستسيغها. وأما الاثنان المتبقيّانِ فقد ظلّت أعينهما محدّقةً في أطباقهما، من دون أن يجرُؤا على الاحتجاجِ على وضع إخوتِهما. وقد أثّرَ هذا كلّه عميقاً في صديقي الشابّ، غيرِ المعتادِ على الشجارات العائليّة، حتّى إنّه فقد على ما يبدو الرغبة في الطعام. وها هو ذا يصنعُ معجزة الحبّ الثانيةَ في رحلتنا: تركَ الطاولة وذهب للبحث عن آلاس، وحمله بين ذراعيه مثل طفل أبيض رقيق، وقدّمه هديّةً للأطفال. وما كانَ من هؤلاء، وقد التمعت عيونهم فرحاً، إلّا أنّ بسطوا أياديهم وأخذوا يلاطفونه برفق.

كانت لفتةُ الأمير الشابّ وموقفه مؤثّريْن إلى حدّ أنّ الوالديْنِ بقيا صامتيْنِ كأن الدّهشةَ قد عقدت لسانيهما. وحينَ تمكّنا أخيراً من الإتيانِ بردّ فعلٍ محاوليْنِ رفض الأعطيةِ (ومتذرعينَ، لا ريبَ، بكلّ الحجج المنطقيّة)، كان آلاس قد صار جزءًا من حياتهم، وكانوا ينظرون إليّ على استحياءٍ بين الفينةِ والفينةِ، كما لو أنّهم يلتمسون منيّ، أنا الأبَ المفترض، الموافقةَ على منحهم الهدية. وحينَ أومأتُ برأسي مبتسماً، تمّت المسألة. وفي اليوم التالي، سيكونون ثمانيةً على الطريق.



منذ تلك اللحظة، عادت السعادة إلى غرفة الطعام، وصار في وسع صديقي الشّاب الاستمتاع بتناول طعامه، وإنْ شغلته عنه بين الحين والحينِ تحيّات الأولاد وابتساماتهم ونباحُ آلاس المبتهج، الذي صار لديه منذ الآن خمسةُ أصحابٍ مستعدّين للّعب معه وتلبية جميعِ احتياجاته.

- كم رائعٌ أنَكَ تمكّنت من فعل ذلك، خاصّة مع هؤلاء الأولاد الذين سخروا منك هذا الصباح- علّقْت لأختبرَ ردَّ فعله.

فكانت إجابته:

- كنتَ قد نبّهتّني إلى أنني استفززْتهم بمظهري غير المألوف، ومن الطّبيعيّ أن يتفاعلَ الأولادُ بعفويّةٍ مع ما رؤوا. ثمّ إنني لم

أستطع تحمّلَ التوتّر، وشعرت برغبةٍ قويّة في فعل شيء يخفّفُ وطأته. كان آلاس إلى جانبي يمنحني السعادة حينَ كنت في أمسّ الحاجة إليها. وإنه لأمرٌ جيّدٌ أن يُفرِحَ الآن قلوباً أخرى.

بهذه التجربة التي أراحت نفوسنا، ودّعنا النهار الثاني من رحلتنا. وها أنا ذا أشعر للمرّة الثانية أنّ الأمير الشابّ قد تجاوزَ كلّ شروحاتي المُسهبةِ بلفتةٍ أنيقةٍ واحدةٍ منه.

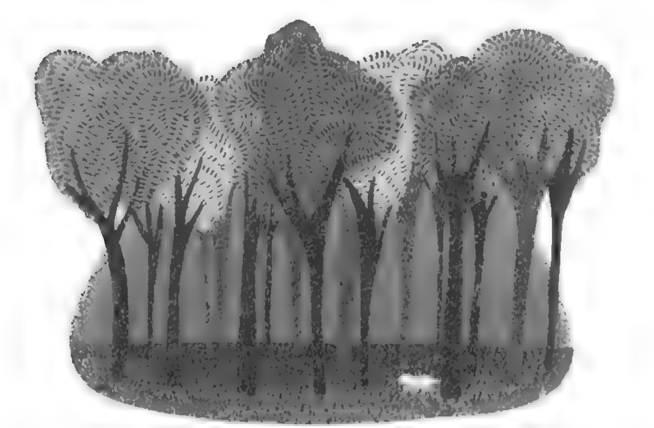


الفصل 17

بعد نومٍ عميق هانئ، استيقظتُ متأخراً قليلاً عن المعتاد. نظرتُ إلى السرير المقابل في الغرفةِ فوجدته خالياً. وعندما فتحت الستائر رأيتُ رفيقي يقف وحيداً عند شاطئ البحيرة، ساكناً سكونَ مياهها. كانت أشعة الشمس الأولى تذوّب آخر بقايا الضباب، كحلوى غزل البناتِ آنَ تذوب في فم الطفل. كان المشهد كله يبثُّ إحساساً بسكينةٍ عظيمة. بعد تناول الفطور عدنا لنستأنف طريقنا. فلاحظنا، قبل المغادرة، أنَّ سيارة العائلة الصاخبةِ لم تعد موجودةً هناك. وبعد مسافةِ ربع ساعة قطعناها في طريق ترابيّ محميّ بظل أشجار الأرْز والتنّوب والأراوكاريا، بلغنا أطراف الغابة، وإذا بالأميرِ الشّابّ يصيحُ فجأةً:

- توقّف من فضلك!

- ما الخطْب؟



- أوْقف السيارة من فضلك! كرّر بقلقٍ شديد. وما أن فعلتْ، حتى ترك السيّارةَ وقطع نحو عشرين مترًا داخل الغابة دون أن ينطقَ بكلمةً أخرى.

- آها، هو ذاك إذن ... قلت متنفّساً الصعداء، ومتعجّباً كيف باغتت الاحتياجات الجسدية صديقي على هذا النحو.

لكنّي سرعانَ ما شعرتُ بمرارةٍ حينَ اكتشفتُ أنّ ما دفعه إلى تصرّفه ذاك لم يكن ما خُيّل إليّ. فبخلاف اليوم الأول من الرّحلةِ حيثُ رأيته يقبلُ نحوي بعينيْن برّاقتيْن، عكست نظرته هذه المرة ألمَاً ينمُّ عن خيبةِ أمل، وقد كان يحملُ آلاس بين ذراعيه.

لم أستوعب كيفَ يبلغُ الأمر بأحدهم أنْ يتخلّى عن مخلوقٍ على هذا القدر من الرّقة.

كانَ آلاس يئنّ ويرتجف، وفي غمرةِ خوفه، أخذ يلعق يديّ الأمير الشابّ ووجهه. وكان الفرح الذي أحسَ به عندما رآنا ثانيةً واضحاً أيّما وضوح.

- لا يمكنُ أن يكون الأطفال هم من فعلوها-قلتُ وأنا أخمّنُ مشاعر صديقي أمام هذه القسوة. لا أفهم لماذا لم يتركوه في النّزل كي نستردّه، تاركين معه رسالة شكرٍ أو اعتذار، كان ذلك ليكفي. شكوتُ له بينما هو لا يزالُ صامتاً.

كانَ الجرو قد اختبر كثيراً من الانفعالات تركَته مُنهكَ القوى، وما إنْ استئنفنا طريقنا، حتى استلقى غافياً في حضن الفتى، الذي ظلّ يلاطفه

طوال الوقت.

ومرة أخرى، ودّعت الطريقُ الوادي فإذا بنا أمامَ منظرٍ طبيعيّ كئيب، اتّساعه الموحش يدعوِ إلى التأمّل أكثر منه إلى الحوار.

لم يجرؤ أيٌّ منّا على كسر الصمت، كأنْ لم يكن هنالك كلماتٌ تليقُ بمثل تلكَ اللحظة. وأخيرًا، كنت أنا من بادرَ بالقول:

- فلنفرحْ لأن آلاس لا يزال على قيد الحياة. ولنغفرْ ونتطّلع إلى الأمام.

ظلّ الأمير الشابّ على صمته، وكأنّه لم يسمعني. كانت ملامحه حزينة متحفّظةً. وبقي على هذه الحالِ لحظاتٍ طويلةً، إلى أنْ نطق أخيراً:

- أنا أيضاً تخلّيتُ عن زهرةٍ ولا أستطيع أن أسامح نفسي على تركها تذبل. ثمّ إنني أشعر بالذنب بسبب تشكّكي في نوايا صديقي الطيّبة، وإنْ كانَ جزءٌ من اللّوم يقعُ على العشبة.

عندها فهمتُ ما الذي كانَ يشدّه إلى الماضي مبدّداً ابتسامته البرّاقة.

- هذه هي العقبةُ التي تمنعك من التقدّم إلى الأمام- خلصت قائلاً، مقتنعاً كلّ الاقتناع بتشخيصي. اصغ جيدًا، لأنني سأبوحُ لك الآنَ بسرّ السعادة.

- أوَ تعرف هذا السرّ؟ سأل الأمير الشابّ وقدّ اتسعت عيناه من

الدّهشةِ، فهو لا يكادُ يصدّقُ أنّ الإجابةَ التي بحثت عنها البشريّةُ على مدى قرون كانت ستُكشَفُ له أخيراً في ذلك المكانِ وتلك اللحظة.

- حسنًا، نعم، أعتقد ذلك- أجبته وأنا أعلمُ أنه في وضعٍ كهذا، خيرٌ لك أنْ تظهرَ واثقاً من نفسكَ من أنْ تتظاهر بالتواضع. فحتّى وإنْ لم أكن قد فككتُ شيفرة أيّ مخطوطة قديمة ولا دخلتُ الحجرةَ المحرّمة في إحدى تلك الأهرامات الغامضة، فإنني على قناعةٍ تامّةٍ بأن هذه الحقيقةَ، مثل كل الحقائق العظيمة الأخرى، بدهيّةٌ في حدّ ذاتها وبسيطة.

- أخبرني ما هو إذن، من فضلك- توسّلَ الأمير الشابّ قائلاً.

- سوف تكون سعيدًا إذا أحببت وعفوت، لأنك بهذا ستنال المحبّةَ والغفران. ولا يمكنك أنْ تغفرَ إنْ لم تحبّ، لأن غفرانكَ لن يفوق أبداً محبّتك. وأخيرًا، فمن المستحيل أن تحبّ وتغفرَ للآخرين من دون أن تحبّ نفسكَ وتغفر لها أولاً.

- كيف يمكن للمرء أن يحبّ نفسه، رغمَ علمه بعيوبها؟ اعترض قائلاً.

- بالطريقةِ ذاتها التي يحبّ بها الآخرين، رغم علمه بعيوبهم. أمّا أولئك الذين ينتظرون مجيء كائن مثاليٍّ كي يحبّوه فإنّهم ينتقلون من خيبة أمل إلى أخرى وينتهي بهم المطافُ بألّا يحبّوا أحدا. من أجل هذا، يكفي كي تحبّ ذاتك وتغفر لها، أن تشعر بالرغبة في المضيّ بها نحو

الأفضلِ وأن تسلّم بأنك قد بذلتَ دوماً أقصى ما في وسعك.

- وكيف سأعرفُ أنني أحبّ حقًّا وأنا لم أختبر الحبَّ من قبل؟ سأل الأمير الشابّ على نحوٍ منطقيّ.

- يكون حبّك حقيقيّاً حين تقدّم سعادة الآخرين على سعادتك. الحبّ الحقيقيّ عطاءٌ بلا مقابلٍ ولا حدّ له. إنّه لا يسعى إلى تلبية حاجاته الخاصة، بل إلى خيرِ الشخص المحبوب.

- ما زلت لا أفهم كيف يمكنني أن أَمنح هذا النوع من الحبَ دون أنْ أكون قد تلقّيته من قبل- ألحَّ الأمير الشّابُّ قائلاً.

- صحيحٌ جدّاً ما تقول. إنّ من بيننا نحن البشرَ من يحظى بتلقّيه محبّةً غيرَ مشروطةٍ من والديه، ومنّا من يُقيّضُ له عبرَ ممارسةِ التأمل إدراكُ أنّه يمتلك روحًا خالدة، واستشعارُ محبّةِ الخالق له. ومنّا من يشعر، بعد قراءته الأناجيل، أن يسوع قد أحب الجنس البشري حبّاً مطلقاً تامّاً، حتّى أنّه بذلَ حياته كي يحرّرنا من الخوف من الموت ويعلّمنا أننا جميعاً كائناتٌ روحيّةٌ تخوضُ تجربة إنسانيّة. وثمّة فريقٌ آخر يكتشفُ في نفسه، من خلال كلمات المعلّمينَ المستنيرين، تعاطفًا مطلقًا مع جميع الكائنات الحية. وإن كنتَ مخلصاً في بحثك، فلا بدّ من أنْ تعثرَ أخيراً على سبب يجعلك تحبّ نفسك، ولسوفَ تكتشف عندها أنك مخلوق فريد وبديع.

كنتُ أتحدّث مقتنعاً كلّ القناعة بما أقول، واضعاً كلّ طاقتي في كلماتي، وواعياً أنّه لا يوجد معركةٌ أعقدُ ولا أجلّ في الوقت نفسه، من

مداواةِ قلبٍ جريح. أمّا هو فكان يصغي إليّ بصمت عميق واحترام.

- يجب أن نتعلّم من الأطفال- تابعتُ قائلاً- فهم سرعانَ ما يغفرون، ولو لم يكونوا كذلك، لكانت الحياةُ سلسلة أحقادٍ وثاراتٍ لانهائيّة. ثمّ ما هو الشيء الرهيب الذي قد تلوم نفسك عليه؟ أنّك تشكّ؟ حتّى أقوى الناس ايماناً يداخلهم الشّك أحياناً. تقبّل أخطاءك وثِق في رحمة الله، لأنه قد غفر لك أصلاً، وإذا كنت تشكّ في وجود الله، فلتسأل نفسك ما الذي ستجنيه حينَ لا تغفرُ لنفسك. زد على هذا أنّك قد اتّبعت صوتك الدّاخلي- وهو ما كان يجدرُ بك أنْ تفعله- بحثًا عن صديقك الطيّار كي تسأله لماذا أهداك صندوقًا لا يمكن أنْ يتسّع لخروف.

ظلّ ساكناً غارقاً في صمته، وقد صارت عيناه أكثر ذبولاً. بل إنّه قد توقّف حتّى عن ملاطفة آلاس.

- أرى أنّه لا ينبغي أنْ تحاسبَ نفسك بهذه القسوةِ على إهمالك لزهرتك. تذبل الزهور في نهاية الصيف وتولد من جديد في الربيع. ولعلّ زهرتَك، بأسلوبها المرهَفِ ذاك، أبعدتكَ عنها حتّى لا ترى كيف ستذبل بتلاتُها وتسقط.

شعرتُ بنظرةِ الأميرِ الشابِ مسلّطةً عليّ بقوّةٍ، كما لو كانت حياته ذاتُها تتوقّف على كلّ كلمة من كلماتي.

- لقد تركتَ عالمك الصغير، هذا صحيح، ولكنْ في سبيلِ استكشاف عالم أكبر؛ إنّ كلّ اختيارٍ ينطوي على تخلٍّ، وكلّ التغييرات تعني

أننا قد تركنا شيئاً ما وراءنا: إنّها الطريقة الوحيدة للنّضج والمضيّ قدمًا. وهي لا تخلو من ألمٍ، لكنّنا نعي أن التجربة ستثرينا. وشيئًا فشيئًا، نتحرّرُ من الكماليّات ونُبقي فقط على ما هو جوهريّ، مثل الحجّاج حينَ يدركون، في طريقهم إلى المقام المقدّس، ثِقل كلّ ما هو غيرُ جوهريّ.

كانت الكلمات تجيء إلى فمي بلا أيّ عناء، مهتديةً بمعرفةٍ بدت خارجةً عن إرادتي.

- وأمّا العشبةُ، فلا تنسَ أنك كنتَ على وشكِ اقتلاعها. فقد جعلتْك أحكامُك المسبقةُ تعتقد أن جميع الأعشاب ضارّةٌ لأنها تغزو فضاءات البشرِ والزهور. لكنْ كيفَ لكَ أنْ تتيقّنَ من أنّ تلك العشبة كانت ضارّةً في حدّ ذاتها؟ بالطبع هي ليست كذلك، إنّها لم تفعل أيّ شيءٍ يتجاوزُ ما خلقتْ للقيامِ به، ألا وهو أن تكون عشبةً. فكيفَ لك أن تلومَ مخلوقاً على لجوئه لأيّ وسيلةٍ كانت كي يبقى على قيد الحياة، حينَ يصبحُ وجوده بحدّ ذاته في خطر؟

هذه المرة نظر الفتى إلي في دهشةٍ، لكنّه لم ينطق بكلمة.

- لا أعتقد أن الأمور تُقاسُ بوصفها خيراً أو شرّاً، إلا فيما يتعلّق بمدى احتياجنا إليها أو بطرق استخدامنا لها. لكنْ لو كنتُ مضطراً إلى الاختيار، فسأقول إنّ الأشياء، لكونها موجودة، فهي خيرٌ بالضرورة. من الممكنِ، ضمن خطة الخلق الكونيّة، أن يكون لكثيرٍ من الأشياء التي تَحدثُ معنىً ما زلنا نجهله. هل يا تُرى وُجدتِ

الأعشاب كي يترتّبُ علينا اقتلاعها حتى لا يستبدّ بنا الكسل؟ أيكون الألمُ قد وُجدَ في العالم كي نمتلك القدرةَ على الحبّ ونعرفَ قيمةَ السعادة؟ أوْ تكون الكراهيّةُ قد وُجدت كي يتسنّى لنا اختبارُ النّعمةِ الرّوحيّةِ التي يجلبها الغفران؟ والحقُّ أنّه لولا المصاعب، لتعذّر علينا نحنُ البشرَ أنْ نتغيّرَ للأفضلِ ونكتشف كينوننا الحقيقية. إننا في أحرجِ الأوقاتِ نُخرجُ إلى النورِ خيرَ ما في أنفسنا.

تنفّستُ عميقاً وتركتُ لرحلتنا الصباحية أنْ تنعمَ ببعضِ الصمت. إنّ الحاجةَ إلى الصفح عن الآخرين، والرّغبةَ فيه، تستغرق وقتاً طويلاً قبلَ أنْ تتدفّقَ بقوّةٍ من دواخلنا.

ومن المفارقات أنّك تجدُ بعض الناس يظنّون أنّهم بغفرانهم للآخرين، إنّما يُسدون لهم معروفاً، غيرَ أنّ النّفعَ الأكبرَ من الغفرانِ، في الواقعِ، يعود على مَن منحه. إنّ المشاعر السلبيّة تنقلبُ دوماً على من يحمِلونها، فنحن حين لا نصفح، وحينَ نحسدُ ونكره، فإنّما نسيءُ إلى أنفسنا في المقامِ الأولّ. وهنا قفزت إلى ذهني، مثل أرنبٍ برّيّ حين يعبرُ الطريق، عبارةٌ لبوذا: «من يؤلمني ينعم مقابلَ ألمي بالأمانِ الذي تهبه محبّتي، وكلما أمعنَ في ايذائي عظمَ ما يتلقّاه مِن خيرِي».

الفصل 18

بلغنا عند الظهيرة مدينةً تشتهرُ بإيوائها فندقاً ومركزَ مؤتمراتٍ فريدَيْن.

وقد أُنشئا بهدف تطوير السياحة في المنطقة واكتشاف معالمها الخلّابةِ عبرَ فعاليات تجارية وفنيّة. توقفنا هناك لتناول الغداء، وعندما توجّهنا إلى غرفة الطعام، رأينا من خلال الأبواب المفتوحة، قاعة المؤتمرات الكبيرة وقد عجّت بالناس.

جلتُ ببصري عشوائيّاً في القاعة لأكتشفَ فجأةً أنّ الخطيبَ كان والد الأسرة التي صادفناها يومَ أمس. كانَ يختتمُ كلمةً روّجَ فيها لنفسه كمرشّح انتخابيّ، وإن استحالَ علينا معرفة لأيّ منصب أو وظيفة كانَ يترشّح. ولشدَّ ما ذُهلنا حينَ سمعناه يقول:

- ... يمكنكم الوثوق بي، لن أخذلكم.

عندها وقعتْ عيناه على نظرةِ صديقي الأمير الشابّ الواضحةِ والنافذة. احتدمت فيّ رغبةٌ عنيدة في كشفه على الملأ، وإخبار الجميع أنه في صباح ذلك اليوم قد خيّب آمالنا بالتخلّي عن جروٍ لا حيلةَ له.

وشعرتُ بالاشمئزازِ حينَ لم أطالع في وجه الرجل ما يشي بشعور بالذنب أو الخجل، ربما لأن تلك المشاعر تتطلب، أوّلاً، أنْ يكون لدى المرءِ ذرّةٌ من إنسانية.

وفي المقابلِ، لم يكنْ في ملامح الأمير الشابّ أدنى أثرٍ من استياءٍ أو تجهّمٍ، بل نورٌ هائلٌ لم يكن لأيّ عتمةٍ أنْ تحجبه.

قرّرنا الدّخول إلى قاعة الطعام فوراً، قبلَ أنْ يُثيرَ التصفيق الختّاميّ شهيّة الجمهور. كنا نهمُّ بتناولِ الطعام حينَ دخل الرجل، ورأيناه يتوجّه مباشرة إلى طاولتنا. فاجأني أنْ يمتلك هذا الفردُ شجاعة التوجه إلينا، فشعرت بالتوتّر يستولي عليّ. أمّا هو فقد بدا هادئًا مسترخياً. وابتسم حينَ دنا منّا، وربت على كتف الأمير الشابّ قائلاً:

- لقد كانت لفتةً رائعة منكَ ليلةَ أمس. وأتفّهم تماماً ندمك على قرارك المتسرّع. فقد كان كلباً مميّزاً للغاية، وإن كانَ عليّ أن أقول لك إنّ الأطفال قد أصيبوا بخيبة أمل هذا الصباح عندما لم يعثروا عليه...



- لا أفهم ...علّقتُ رامقاً الأمير الشابّ بنظرةٍ خاطفةٍ وكانَ ما يزال يجلسُ هناك ساكناً هادئاً- ماذا تقصدُ بأنّهم لم يجدوه؟

لكنّ الأب، متجاهلاً مداخلتي، تابع يقول:

- ... لو أنّكما على الأقلّ تركتما ملاحظة تقولُ مثلا... لا أعرف... ، كم تحبّان الجرو ويعزّ عليكما تركه، لكانَ أسهلَ عليّ بكثيرٍ أن أشرح الأمر للأطفال ...

- اصغ إليّ من فضلك- قلتُ هذه المرّةَ بنبرةٍ أقوى- وأنا لا أستوعبُ لماذ يُبدي لنا كلّ هذا التّفهم والودّ، مع أننّا نحنُ من كان ينبغي أنْ نكون في مكانه ونتحدثُ بحديثه،- إنّ صديقيَ الشابّ لم يندم على أي شيء. ما حدثّ أننا هذا الصباح، وبعد مغادرتكم، وجدنا الجرو في الغابة وافترضنا أنكم ...

- هجرناه، أهذا ما تريد قوله؟ - أكملَ الأب العبارة التي لم أجرؤ على إتمامها. أنهجرُ جرواً جميلاً لا حيلةَ له مثل هذا؟ ولكن.. كيف لفكرةٍ همجيّةٍ مثل هذه أنْ تخطرَ في بالك؟ احتجّ الرّجلُ ساخطاً.

وبعد صمت حرجٍ لمْ أحِر فيه جواباً، تابع الرّجلُ حديثه:

- ربما رأيتَني أتّخذ موقفا قاسياً تجاه أطفالي، لكنني لست شخصًا عديمَ الإحساس، ودائماً ما حرصت على ألّا أكون ظالماً. أعتقد ببساطة أنّ شيئاً من الانضباط خيرٌ من غيابِ القيود -وبعد لحظة تفكيرٍ أردفَ- : لا أجدُ تفسيراً لما حدث، سوى أنّ الجرو تمكّن ربّما من فتح باب الحجرة أثناء الليل وتاه في الغابة - والتفتَ إلى الأمير الشابّ مُضيفاً:

- إنّ كلاب كوفاز سلالةٌ قلقة، أتعلم ذلك؟ ومن حسن الحظ أنك عثرتَ عليه.

انعقدَ لساني فلم أنبس بكلمةٍ، مثلَ طفلٍ وقعَ ضحيّةَ مزحةٍ ثقيلة.

- حسنا، سأنصرف الآن، رحلة سعيدة. وبينما كان يسيرُ مبتعداً عنّا، أوقفه صوتُ الأمير الشابّ.

- أين يمكنني أن أجدَ الأطفال؟- سأل.

- في الغرفتين 310 و 311. سيسرّون كثيراً برؤيتك، أجابَ الرجل مُلتفتاً نحونا، ثم تابعَ طريقه صوب مائدة كبيرة، حيث كانوا ينتظرونه لإقامةِ ما يشبه احتفاليّةً تتعلّقُ بترشيحه.

صحيحٌ أنّه لم يمضِ وقت طويلٌ على معرفتي بالأمير الشابّ، لكنّني تخيّلتُ ماَ سيحدث:

لقد كانَ نبلُ قلبه أكبرَ بعدُ من عاطفته نحو آلاس، على عِظَمِها .

وما هي إلا دقائقُ حتى فُتح باب الغرفة 311. وعادت صيحاتُ الصغار تتمازجُ مع نباحِ الكلبِ المفعم حماسةً: ها هو ذا يستعيد أصحابَه الخمسة الصاخبين.

بعد ظهر ذلك اليوم، وبينما كنت أقود السيارةَ ، وَعدتُ نفسي بأنْني في المرّاتِ القادمةِ، حينَ يروادني الشّك، سأحاول أن أحسنَ الظّنَ بالناس لا أنْ أفعل العكس. لقد أدركت أنه لا يهمُّ كم مرّة يخذلونك، وما دمت قرّرتُ أنّ أيّ إنسانٍ سأعرفه منذ الآن فصاعداً سيكون جديراً

بمحبّتي وثقتي، فقد بتّ الآن أكثر سعادة، وصار العالم في نظري مكاناً أفضل للعيش.

ومنذ ذلك الحينِ أخذ حسنُ ظنّي بالبشرِ والأحوالِ يجذبُ نحوي أناساً وظروفاً مواتية. يبدُو الأمر كما لو أن الواقع يسعى إلى تلبيةِ ما نتوقّعه منه، خيراً كان أمْ شرّاً. وهو ما يُثبتُ ربّما صحّة القول: «سواءٌ اعتقدت أنّ التوفيقَ حليفُك أم خصمُك، فأنت محقٌّ على الوجهين».

عندما نظرتُ إلى الأمير الشابّ، طالعتُ في ملامحه سكينةً تامّة . وتذكرتُ أنني طوال النّهار لم أسمعه يُدلي بأيّ تعليقٍ سلبيّ يمسُّ تلك العائلة.

أما أنا، فبافتراضي أن الأطفال بريئون من تلك الفِعلةِ، أدنتُ الأبَ إدانةً عمياءَ منذ البداية. بل ثمّة ما هو أسوأ بعد: فقد أدركتُ أنني حين رأيته على المنصّة، وعلى الرغم من كلّ ما أكدّسه من أفكارٍ حول الغفرانِ، لم أغفر له.

شعرت للحظةٍ أن الفتى كانَ يشكُّ في صحّةِ افتراضي منذ البداية، وأنّه لم يفعل شيئًا لانتشالي من خطأي. لكنّني طردتُ هذا الخاطرَ من بالي. وهنا افترّت شفتا الأمير الشابّ عن ابتسامة مشرقة وديعة ...

ثمّ لم نلبث أنْ استأنفنا طريقنا التي، بعد أنْ ودّعَت الوادي، أخذت تسيرُ بنا نحو المدينة. هنالك، كانَ صديقان ينتظرانني لأكون عراب ابنهما البكر. خلال ذلك اليوم الثالث، لم يكد الأميرُ الشابّ ينطقُ بكلمة

واحدة. كانَ يُصغي إليّ ثمّ يعود ليغرقَ في أفكاره، كما لو أنه، مستشعراً قربَ انتهاء الرحلة، أراد أن يستوعب كلّ تجاربي.

- كلّمْني عن السعادة والحبّ- سألني فجأةً.

- يا له من موضوع! قلت متنهداً. عن هذا الأمر يمكنني أنْ أتحدّثَ أكثرَ من شهرزاد في ألف ليلة وليلة. سأحاول أن أقدم لك بعض الأفكار عمّا قد تكونه الحياة في ظلّ الحب والسعادة أو في غيابهما، لتبحثَ فيما بعدُ عن طريقك الخاص. لقد علّمتني التجربة - بدأت قائلاً - أنْ لا وجودَ للسعادة من دون هذا الحبّ الذي يُفهمُ بوصفه شغفاً دائما بالحياة ودهشةً لا تنقطعُ أمام كلّ ما تدركه حوّاسّنا، سواء كانَ ألواناً وحركاتٍ وأصواتاً، أم روائح وأشكالا.

- هل تعني أنه ينبغي علينا أن نبثَّ حبّنا في كل ما نفعل؟-سأل

- هو ذاك بالضبط - أجبت. وأنْ تفعله بشغف، سواءٌ كان في العمل والفن، أم في الصداقة والرياضة ومساعدة الآخرين، أم في العشق. والسعادة أيضاً - أردفت - هي توازن يتطلّب تلبية الاحتياجات البشرية المتعدّدة بدءاً من أبسطها، مثل الغذاء والمأوى والقربِ من أقراننا، والعثورِ على ما يحفّزنا، وصولاً إلى أعلاها درجةً، مثل التسامي والحبّ والإيثار وبحثِ الفردِ عن معنى حياته، مروراً بأخرى، مثل الإبداع ونيل الاعتراف والقدرة على الإنتاج والتغيير. وحده ذكاؤنا كفيلٌ بتلبيةِ هذه الاحتياجات تلبية متناغمة تنسجم مع طبيعتنا ومع الغايةِ التي اخترناها لحياتنا.

- وكيف أعرفُ أنني بلغتها؟ سأل الأمير الشابّ.

- ليسْتْ السعادة مجرّدَ هدف نهائيّ نسعى إلى بلوغه كما لو كانت محطّة قطارٍ أخيرة؛ بل هي بالأحرى شكلٌ من أشكال السّفرِ عبرَ الزّمن-و بعبارةٍ أخرى، الحياةُ هي العيشُ اليوميّ.

- قطار ...؟ تدخّلَ الفتى متسائلاً.

- وهي ليست شعورًا خاملاً- تابعتُ متجاهلاً مداخلته. بل إنّها على العكس من ذلك تتطلّبُ الانتباه وبذل الجهدِ يوماً بيومٍ من أجل تحقيقها.

- لماذا تبدأ حديثَك دوماً بوصفِ ما ليستِ الأشياءُ عليه؟ اشتكى قائلاً. لو أنّك لا تفعل، إذن لادّخرت نصفَ الوقت. وقبل أن يتاح ليَ الوقتُ لأتفاعلَ مع شكواه شارحاً خاصيّة الثنائيّةِ القطبيّةِ التي يتّسم بها كونُنا، ألحّ بالسؤال:

- ما هو القطار؟

- مجموعة من العربات تجرّها قاطرة على قضبانٍ نسميها عادة خطوطَ السّكةِ الحديديّة-أجبتُ باقتضابٍ، مجتهداً في ألّا أعودَ لأصفَ ما ليست الأشياءُ عليه.

- إذا كان من الصعبِ الخروج عن هذا الطريق- لاحظ الأميرُ الشّابّ-. فلا بدّ أنّه من شبه المستحيل الخروج عن سكّة الحديد.

كانَ صمتي تأكيداً لما حدس به.

- يبدو أنه لا يوجد هامشٌ كبير للحرية في هذا الكوكب، استنتج أخيراً. وبدا من العبث الشروع في مناقشةٍ حول مسألة حريّة الإرادة، لذا استأنفت الحديث فيما كنتُ قد بدأت به: - لكي نعيش في سعادة يجب أن ندافع عن الحرية، ولكن أيضًا عن الحياة والأخلاق واحترام الذات والوفاء والسلام. إنه واجبُ جميع البشر أن يسعوا إلى حياة أفضل، ناهيكَ عن أنّ ذلك هو أشدّ المواقف نزاهةً تجاه الذّاتِ والآخرين.

- ماذا تقصد ب « حياة أفضل»؟ سأل.

- السعيُ نحو حياة أفضل يعني أنْ نتلقّى بترحابٍ بالغ كلّ ما تهبه الحياةُ لنا وأنْ نجذبَ إلينا كلّ ما يُثرينا على صعيد العاطفة والمادّةِ والرّوح.

كان علي أن أبذل جهداً للتوقف عند هذه النقطة، فلا أشرح له أن نقيض السعي إلى حياةٍ أفضل هو «البقاء على قيد الحياة»، والذي يقتضي العيش بأقلّ ما تيسّر. لكنّ الأميرَ الشّابّ كان قد جرح كبريائي فلم أشعر برغبة في أنْ أتجاوز بشرحي الحدّ اللازم ، حتى لو اقتضى ذلك ألّا أعبّر عن نفسي بوضوحٍ كافٍ. وقال:

- تبدو كثيرةً الأشياءُ التي على المرء أنْ يمتلكها كي يكون سعيدًا.

- في الحقيقة، كلّا- عارضته من فوري. فالسعادة تأتي من الكينونةِ لا من التملّك، من امتنانِ المرء لكلّ ما هو موجود وإدراكِ قيمته، وليس من السعي لامتلاك ما ليسَ بيْنَ يديه. وفي كثير من الأحيان، يكون ما ينقصنا هو مصدر سعادتنا، لأنه يجذبُ إلينا

من يكمّلنا. فلو كنّا كاملينَ وممتلكينِ لكلّ شيءٍ، فبأيّ وسيلةٍ كنّا لنرتبطَ بالآخرين؟ ذات مرّة قال أحدهم إنّ ما يُبقينا آمنين ليلاً ليسَ حِصنَنا، وإنّما طبعُنا الحنون الذي يُرغّبُ الآخرين في حمايتنا. إنّ أبسط الطرق وأقصرها إلى السعادة هي إسعادُ الناسِ من حولنا-ختمتُ قائلاً. وبعد لحظاتٍ بقيْتُ فيها وصديقيَ الشّابّ صامتيْن، وإذ لاحظتُ أنّه ينصتُ إليّ بعناية، استأنفت حديثي:

- أمّا عن الحّب، فأعتقد أنّ أعظمَ ما قيلَ فيه إنّكَ لا تعرفُ ما هو إلّا إذا منحته. جميعنا يمتلك القدرة على منح الحبّ، حتى لو بابتسامة، وهو يثري من يعطيه ومن يتلقّاه في آن.

- أحسبُ أنه سيغدو كوكبًا لطيفًا للغاية لو لقي سكّانه بعضهم بعضاً بابتسامة. قال الأمير الشابّ.

- الحب الحقيقي- أردفتُ قائلاً- ينشدُ الخيرَ للآخر وينسى نفسه. وبهذا الحب القادر على التقبّل والغفران بلا حدود، لا شيء يغدو مستحيلا. إذا عاملنا الآخرين بما ما هم عليه، ظلّوا على ما هم عليه، أمّا إذا عاملناهم بما قد يصبحونه، فسوفَ يبلغون ذروةَ كينونتهم. ذلك هو حب الإيثار الذي يصقلُ كلّ شيء في طريقه ولا يتركه ضحيّةَ اللاّمبالاة.

- غيرَ أنّكَ رغم كل ما تمنحُ من حبٍّ، لا يمكنكَ علاجُ كلّ شيءٍ- أجاب صديقي، ربّما لأنّ الحنين عاوده إلى زهرته، هنالكَ في أحدِ الكويْكباتِ التائهة في الفضاء، ببركانيْه الموشكيْنِ على الثوران.

- لكن في وسعكَ دوماً أن تفعل شيئًا، لاتنسَ ذلك -أجبت. الحبّ ألّا

تتخلّى عن فعل ما تستطيعُ إليه سبيلاً. وإذا كانَ هوَ كلّ ما تبقّى لك، فسوف تكتشف أنّه يكفي ويزيد.

- لا بدّ أنّه أمرٌ بالغُ الحزن ألّا يكون المرء محبوباً، لاحظ قائلاً.

- والأصعبُ منه ألّا يكون قادراً على الحبّ. أشرتُ قبل أن أُردفَ قائلاً-: ثمّةَ من يرى الشرّ قوّة جبّارةً تقفُ على النقيضِ من الحبّ. أعتقد أن أكبر مأساة يمكن أن تقعَ هي التوقّف عن الحبّ. إنّ انعدام الحب لهو الجحيم بعينها.

- وماذا يحدث لو ارتكبتَ خطأ وأخفقتَ في الحبّ؟

- إنّني لا أدركُ الأخطاء بوصفها إخفاقاتٍ، لأننا نتعلّم منها. والخطأ الحقيقي الوحيد هو أنْ تكفَّ عن المحاولة مرارًا وتكرارًا، وبطرق مختلفة ومبتكرة في كلّ مرةٍ، لأنّك إذا اقتصرتَ على تكرار ما فعلته سابقاً، فلن تجنيَ غيرَ ما جنيْت. وعليه فإنّه لا يمكنك أن تخفقَ في الحب: الخطأ الوحيد هو ألّا تحبّ.

- وكيف لي أنْ أعرف من الجديرُ بعوْني ومحبّتي؟- سأل الأمير الشابّ.

- إنّنا في الغالبِ ندّخر عوننا ومحبّتنا لمن هم جديرون بهما فقط. وهذا خطأ فادح، فليس من شأننا الحكم على جدارة الآخرين ، ناهيكَ عن كونه مسألةً بالغةَ التعقيد، ليسَ علينا سوى أنْ نحبّ فقط. وكما هو الحالُ مع الغفران، فكلّما جادَ الإنسانُ بحبّه عظمَ جزاؤه. وعلى أيّة حال فإذا كان الله يوزّعَ محبّته على البشرِ

بالتساوي، فلماذا علينا نحن البشرَ أنْ ننبذَ بعضَ الناسِ ونصطفيَ بعضهم الآخر؟ أمّا من يستغلّون طيبتكَ، فلتشفق عليهم!. وفي آخرِ الأمر-قلت- فإنّك إنْ وقفتَ حياتكَ على اكتشاف خيرِ ما في الناس، آلَ بكَ الأمر إلى اكتشافِ خيرِ ما فيك.

- وماذا عن الخوف من الموت، تساءل على غيرِ ما هو متوقّع- ألا يحولُ دونَ سعادتك؟

- كثيرٌ من الناس يساورهم القلق بشأنِ نهايةِ حياتهم. بينما كانَ الأجدرُ بهم أن ينشغلوا باختيارِ مبدأٍ حقيقيٍّ لحياتهم جاهدينَ في أنْ تكون حياةً مثمرة. أعتقد أن النفوس لا تضلّ إلى ما لا نهاية وأننا جميعاً سنبلغُ وجهتنا في آخر المطاف، ولكن إذا كنّا سنخضعُ للمحاسبةِ، فإنني مقتنع بأن السؤال آنذاك سيكون: إلى أيّ حدٍّ أحببت؟» لن يسألونا «كم جنيْتَ من أرباح؟» بل «كم قدّمتَ للآخرين؟» عندها لن يسعفكَ ما تمتّعت به من عظمةٍ ظاهريّة، إنْ لم تكن قد سخّرتها لخدمةِ الآخرين.

بعد وقفة قصيرةٍ، غالبتُ فيها عاطفتي، أضفت:

- أوَ تعلمُ شيئاً؟ الحبّ أكبرُ حتّى من الموت نفسه. كانَ لي شقيقٌ يحبُّ الأجنحة. وكان له جناحانِ ملوّنانِ. يقولون إنه مات، لكنه لا يزال حيّاً في قلوبنا. ومنذ ذلك اليوم، صرت أعتقد أن الموتى الحقيقيّين هم فقط أولئك الذين لم يحبوا يوماً قطّ، ومن لا يزالون يصرّون على رفض الحبّ.

الفصل 19

بلغْنا مشارفَ المدينة، حيث كان الأصدقاء في انتظاري. لكنْ لا أحد سيكون في انتظار الأمير الشابّ، ولا حتى هنالك على كوكبه الصغير. ولشدَّ ما أحزنني هذا الخاطر، فدعوته إلى أنْ يبقى بصحبتي.

- لقد كانت الحياة سخيّةً معي-قلت- وأود أن أقدّمَ لك العون إنْ كنت في حاجته.

- شكرًا-أجاب- ولكنك قد قدّمت لي الكثير بالفعل...

في تلك اللحظة بالضبط، وحيثُ صرنا على مقربةٍ من مركز المدينة، أوقَفتنا إشارة مرور. اقترب متشرّدٌ من السيارة ومدّ راحته نحونا. وحينَ أنزلَ الفتى نافذته، اشتممنا رائحة كحولٍ قوية.

- هل معك شيءٌ من المال؟ سألَ صديقي الشابّ.

- أعتقد أنّه لم يبقَ معي «فكّة».

- إذن فلتعطني ما لديك، ألحّ قائلاً.

- هل أنت متأكّدٌ مما تقول؟ سألتُ بنبرةٍ متشكّكةٍ وأنا أحاول إخراج

محفظتي العالقةِ في الجيب الخلفيّ من بنطالي- سوف ينفقه كلّه على الشراب.

عندها أضاءت الإشارة الخضراء وأشارت إلينا السيّارة في الخلف بأن ننطلق، فيما كانَ المتشرّدُ لا يزال منحنياً على النافذة.

- اركن جانباً ودعه يمر-طلب منّي صديقي. وأدركتُ للمرّةِ الثانيةِ أنّه من المستحيلِ معارضته.- قلتَ لي منذ قليلٍ إننا يجب أنَ نعطيَ من دون أنْ نسألَ لمن. حسنًا ، لدينا هنا شخص يطلب المساعدة.

- لا أعتقد أنّ المال، في هذه الحالة، يحلّ مشكلته- احتججت قائلاً، وإنْ كنت في العادةِ أحاول المساعدة دون أنْ أفكّر في هذا الأمر.

- لعلّ النبيذ يساعده في التغلّب على مشكلاته- أجاب-. إلّا إذا أردتَ أنْ تسمعَ قصته أوّلاً، كي تعرف كيف يمكنك مساعدته بحق...أتعلم شيئاً؟ أردفَ فجأة، كما لو برقَ في ذهنه خاطرٌ جديد -: أعتقد أنها فكرة رائعة. سأقضي الليلة هنا. فلعّلني أستطيعُ فعلَ شيءٍ من أجله وإلّا فمنَ الأكيدِ أنّ القليل من الاهتمام والرفقة سيجعلانه أحسن حالاً ...

- لكنْ لا يمكنك البقاء هنا في الشارع هكذا، ومن دون أنْ تعرف من هو هذا الرّجل ...

فقاطعَ الأمير الشابّ احتجاجي قائلاً:

- لا تنس أنّني، قبل ثلاثة أيام، كنت أنا أيضًا مُلقى على قارعة طريق

وأنت من مدّ لي يد العون. فما الفرقُ إذن؟ مظهرُنا؟ أنت نفسك قلتَ إنه يجب ألا نهتديَ بالمظاهر. ها أنت قد أنجزت صنيعكَ الطيّب، والآن دعني أقوم بدوري. اذهب إلى الأصدقاء فهم في انتظارك. أما أنا فوجودي هنا سيكون أجدى نفعاً-ثمّ أضاف، كما لو أنّ خطباً ما قدْ ألمّ به في الحال:- عُدْ مع الفجر. أودّ أن أودّعك.



وبهذه الكلمات غادرَ السيارة ومضى ليجلس إلى جانب المتشرّد. وحينَ رأى أنني لم أحسم قراري بعدُ بالمغادرةِ - غيرَ متقبّلٍ فكرة تركه هناك- أشار إلى أن أمضي.

لم أستطع الكفّ عن التفكير في الأمير الشابّ وفي الظروف التي جعلتنا نفترق. إنّ فرص الشروع في محادثة عقلانيّة بينه وبين المتشرد مستبعدةٌ جدّاً، فحين يقرر شخصٌ ما السير في طريق التدمير الذاتيّ، يصعبُ جداً إقناعه بأنْ يحيد عنه. فضلاً عن ذلك، فقد كان من المحتمل أن يتصرّف الرجل بعنف تجاه أي محاولة منّا لمساعدته. وبرغم هذا

كلّه، استطاع صديقي أنْ يجعل المستحيل ممكناً، هذا إذا وجد أصلاً ما يستحيلُ على ذلك القلب النقي وتلك الابتسامة الشفافة. وإنْ كان هو أيضاً، جالساً هنالك في زاوية الشارع بقبّعته المعكوسةِ، قد بدا مثل أي فتىً آخر بلا مأوى.

وأثناء الاحتفال، حيثُ كنتُ أشاطرُ أصدقائي فرحتهم، أخذت صورة الأمير الشابّ تبهتُ في ذهني، مثل شوكةٍ لم تعد تسبّب الألم. ولكنّني، حينَ خلدْتُ إلى النوّم، لم أستطع منعَ نفسي من المقارنة بين فراشي الوفير الدّافئ وبين الرّصيف البارد القاسي حيُث تركتُه. وللحظة، تملّكتني الرغبة في الذهاب للبحث عنه، حتّى إنني خرجت من الغرفة، لكنّ شيئاً ما أخبرني بأنّ عليّ ألاّ أعصيَ أمره. فتحتُ النافذة. كانت ليلة ربيعيّةً جميلة- وإنْ تخلّلها نسيمٌ بارد بعض الشيء- حيثُ ضوء القمر الخافت يحجبُ طفيفاً نجمة الصبح. وحينَ نظرتُ إلى أعلى، أذهلتني من جديد سماءُ باتاغونيا المُرصّعةُ بالنجوم. حتّى أولئك المُعتادون رُؤيَتَها، لو توقّفوا في تلك اللحظةِ ونظروا نحوها لتسمّروا هم أيضاً من الدّهشة.



الفصل 20

كنتُ قدْ تركْتُ النافذة مفتوحة لأشعر بقربٍ أكبرَ من صديقي الشابّ، فأيقَظتني أولى أشعة الشمس الصباحيّة. ارتديت ملابسي على عجلٍ، ومن دون أنْ أتناولَ فطوري، توجّهت بسيّارتي إلى المكان الذي افترقنا فيه. كنتُ أشعرُ بتوتّرٍ في رأس معدتي، لكنّه سرعانَ ما تلاشى حينَ رأيتُ الأميرَ الشابّ جالساً يتحدّث إلى المتشرد، كما لو كانا صديقيْن منذ الطفولة.

-مرحبا! قال وهو يقترب لتحيّتي مُمتلئاً نشاطاً كما لو كان قد باتَ ليلةَ أمس على فراش من ورد.

- مرحبا! أجبت- مأخوذاً بشيْء من الفضول. ثمّ سألت -: حسنًا، أخبرني إذن، ما قصّته؟

- إنه إنسانٌ طيّب، طالب جامعيّ كان ينعمُ بسعةِ العيش. وأثناء فحص طبيٍّ روتينيّ، تبيّنَ أنّه مصاب بمرض عضال: لم يكن قد بقي له من الحياةِ سوى شهرين أو ثلاثة. خرجَ من العيادةِ يائسًا تماماً، فقرّر وضع حدٍّ لحياته كي يُجنّبَ أسرته المعاناة. ولحسن الحظ لم تواته

الشجاعة- أو بالأحرى الجبن- لاقتراف ذلك، فأخذ يمشي، واستقل أول قطارٍ صادفه قادماً به إلى هنا، حيث قرّر التخلّي عن كل شيء.

وحينَ رأى الأميرُ الشابّ دهشتي ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ كانت الدّليلَ القاطعَ على أنني للمرّةِ الثانيةِ أسيء الحكم على الأشخاص والمواقف. لكنّه تابع قصّتة من دون أن يقول لي صراحةً: ها أنا ذا أمسك بك متلبسّاً للمرّة الثانية.

- قضيتُ الليلةَ بكاملها في محاولةِ إقناعه بالعودة إلى المنزل، وبأنْ يتيحَ لعائلته أنْ يحوطوه بمحبّتهم ورعايتهم، علّهم يردّون له جزءاً مما تلقوه منه. فالحبّ- وإنْ لم يكن أبديّاً- يغدو لا نهائيّاً حين يُمنح.

- في الواقع – قلت متأثّراً بالقصة- كثيراً ما سمعتُ أن اللحظات الأخيرة من الحياة قد تكون أعمقَ من كلّ ما سبقها من أعوام. أعتقد أن الوقت ليس بالضرورة خطيًا. ما أروعَ لو عشنا كل يوم كما لو كان آخر يوم! كم من الأشياء سنفعل وكم منها سنمتنع عن فعله! وأكثرُ من ذلك، فإنني على قناعةٍ بأن الموت يأتي إلينا من تلقاء ذاته عندما نكون قد تعلّمنا كلّ ما جئنا إلى هذا العالم كي نتعلّمه – ثمّ سألت صديقي أخيراً:

- وماذا ستفعل الآن؟

- سأصطحبه إلى المنزل وأمكثُ معه ومع عائلته ما داموا في حاجتي. وبالمناسبةِ، ينبغي ألّا تفقدَ الأمل بحصول معجزة- قال

مبتسماً، ثم أردفَ غامزاً بعينه-:

- فالتشخيص يخطئ أحياناً، أليسَ كذلك؟

أنهى حديثه ثمّ عانقني. فشعرت بتيّارٍ كهربائيٍّ يسري في جسدي، كما لو أنّ أعصابي وشراييني وخلاياي كلّها قد شُحنت بطاقةٍ منعشة. وشعرتُ للحظةٍ كأنني عالقٌ في الهواء. وحينَ أرخى ذراعيه مبتعداً، وكنت ما أزالُ تحتَ تأثيرِ تلك اللحظة، اعترفتُ قائلاً، وغامزاً بعيني أيضاً «هذا صحيح، يجب ألا نستبعد أبدًا حصولَ معجزة».



وبدا أن المتشردَ قد اكتسبَ هو الآخر حيّوية جديدة، واكتست ملامحه الحزينةُ ووجهه المُتعبُ تعبيرًا طيّباً يكادُ يكون لنبيٍّ.

وبينما كانا يسيران مبتعديْن، بدا لي وكأنّهما محاطانِ بهالةٍ من نورٍ جديد أضاء شوارع المدينة الغارقةِ بعدُ في سباتها.

هكذا كانَ أنْ بدأتُ أرى الأشياء كلّها على نحوٍ مختلف. شعرت أنّ الأمير الشابّ هو من كانَ يُرشدني بأسئلته، كي أتعلّم الإجابات. لقد كنتُ أنا من وجبَ عليه ألا يضيقَ ذرعاً بالمشكلات. أنا من كانَ عليه ألّا يصير شبحًا أو إنساناً جادًا، وأن يشعر بمودّة تجاه الحيوان أكثر منه تجاه الآلةِ، من كان عليه ألا يتعلّقَ بالماضي والمستقبل، كي يتمكّنَ من عيشِ اللحظةِ الحاضرة، من كانَ عليه أنْ يهجر «التملّك « وينصرفَ إلى «الكينونة». أنا من وجبَ عليّ ألّا أتورّطَ في الوسائل، بل أن أمضي نحو الغايات. من كانَ عليه أنْ يحيا بالحبّ كي يكون سعيدا.

كان صديقي يكتفي بأنْ يُتيحَ لي اكتشاف خيرِ ما فيه لأعثرَ أنا على خيرِ ما فيّ. ولقد كانتْ تلك معجزةً قلبت حياتي في ثلاثة أيام رأساً على عقب؛ واحدةً من عجائب الدّنيا التي تحدث دون أن يلحظها أحد، فمعجزات الحبّ هائلةٌ بقدر ما هي بسيطة.

اغرورقت عينياي بدموع فرحٍ أغشت بصري. وها قد حانَ دوري لكي أقول له «شكراً»، حتّى وإنْ كان أبعدَ من أنْ يسمعني. لكنّه في تلكَ اللحظة بالضّبط، التفت وابتسم. وحتّى من على تلك المسافة، بهرني ذاك الوميضُ الأبيضُ السّاطع وكنت أعرف أن الكون كلّه يبتسم معه.

خاتمة

هذه هي قصّة رحلتي، أيّها القارئ العزيز، وها أنا أسارع إلى كتابتها لك، كي لا أدعكَ غارقاً في الحزن. أعتقد أنك ستتفق معي أن الحياة الآن باتت أجمل، ولم يعدْ ثمّةَ داعٍ للقلق. فها هو الأميرُ الشابّ قد عاد، وقد عادَ هذه المرة ليبقى بيننا.

صحيحٌ أنني لم أره منذ ذلك الحين، لكنّه كلّما ابتسمَ وحملتني ابتسامته على أنْ أكون ودوداً مع شخصٍ آخر، أو أفعلَ شيئًا من أجله، شعرتُ كما لو أن موجةً قد أخذت تتحرك. فإذا بسَط هذا الشخصُ الذي تلقّى عوني يده إلى شخص آخر أو ابتسم له، تحوّلنا معاً إلى مدٍّ يصلُ إلى كل مكان. هكذا فإنني حينَ أشتاقُ إلى الأمير الشّابّ أو أفكّر فيه، أحركُ واحدةً من هذه الأمواج متيقّناً من أنّها سوف تمتدّ إليه. وبالطريقةِ ذاتها، فقد صرتُ منذ آخرِ صباحٍ رأيت فيه الأميرَ الشّابّ، وحينَ أكون حزيناً فيبتسمُ لي أحدهم، أعلمُ أنّه هو الآخرُ، من بعيدٍ جدّاً أم من قريبٍ، قد ابتسم لي.

وأحياناً، عندما أعبر متنزّهاً وأرى مجموعة من الأطفال يلعبون، أجدني أسعى إلى العثورِ عليه من بينهم. لكنّني سرعانَ ما أتذكر

كلماتي الخاصة: « لا يجدرُ بكَ أنْ تنغلقَ على الآخرينَ بحثاً عن صديقك المنشود». وأدركتُ أنّه ينبغي عليّ ألّا أبحثَ عنه بعد اليومِ، فبوسعي أنْ أهتديَ إليه في الآخرينَ إنْ أبصرتهم بعيْن قلبي.

ليالى طويلةً من حياتي قضيتها عابراً مدناً وحدوداً بحثاً عن صديق، إلى فجر ذلك اليوم حيثُ وجدتُه يبتسم في قلبي ...

كانت ليلةً ربيعية جميلةً- وإنْ تخلّلها نسيمٌ باردٌ بعض الشيء- حيثُ ضوء القمر الخافت يحجبُ طفيفاً نجمَةَ الصّبح... وكانَ في تلكَ اللحظةِ أنْ فهمت: عليّ أنْ أرفع نظري إلى السماء!

وفجأة حدث شيءٌ عجيب. بدت النجوم تبتسم لي في الأعلى، وحينَ هبَّ النسيم، أخذت ترِنُّ مثل خمسمائةٍ مليونٍ من الأجراس الصّغيرةِ تُقرَعُ في آنْ.



هذا الكتابُ مُهدًى:

إلى يسوع المسيح، النّور الذي يرشدني والطريق.

وإلى جدّتي ماريا خوسيفينا ميلر دي كولمان María Josefina Miller de Colman، وأخي أندرياس كريستيان Andreas Christian، وإلى ذكرى صديقيّ خوان أنخيل ساروبا Juan Ángel Saroba وخيراردو ليوني Gerardo Leone.

إلى أنطوان دو سانت إكزوبري، الذي منحني ما يكفي من قوّة لأحافظَ على براءة القلب ونقائه.

وإلى والديّ، اللذين كفلا للحبّ أنْ يظلّ منتصراً على مرّ السنين. وأشقّائي، وأهلي وأصدقائي الأعزاء، لأن سعادتي تضاعفت بتقاسمها معهم.

إلى أساتذتي، والعقباتِ التي صادفتها على طول الطريق، لأنهما، بِتشكيلِ شخصيّتي وصقلها، أعاناني على اكتشاف روحي.

إلى أبنائي في العماد، من بفضلهم أتطلعُ إلى المستقبل بفرح وشغف.

وإلى الأمير الشابّ، لأنه مُنحَ فرصةً أخرى ليكون سعيدًا ولم يرفضها.

وأودّ أنْ أعبّر عن عميق امتناني لجميع أولئك الذين انعكست كلماتهم ورؤاهم، بطريقة ما، في هذا العمل. فبعد الاطّلاع على العديد من أفكارهم عبر الكتب والحوارات والمحاضراتِ والمنشورات، لا يسعني القولُ إلى أي مدى ساهم كل منهم في صوغٍ تفكيري وشعوري.

وأرى أنّ خيرَ طريقة للتعبير عن مدى تقديري لهم جميعاً هي أنْ أتقاسم مع الآخرين ما تعلّمته منهم من دروسٍ أثبتت جدواها حينَ سعيْتُ لتطبيقها، وشكّلتْ، إلى جانب تجربتي، الأسسَ التي رحتُ أشيد فوقها، يومًا بعد يوم، سعادتي ونمويّ الروحيّ.

امسح الكود .. انضم إلى مكتبة



مكتبة

عودة الأمير الشابّ



« تخيّل أنّك نهرٌ جارعليه أن يندفع بلا هوادة، فتقرّر الالتفافَ حول الجبال محاولاً العثور على مسارٍ يتطلّب منك أقلّ قدرٍ من المقاومة. مصاعب الحياة - أردفت - أشبهُ بالحصى الّذي تصادفه في طريقك. إن انت جرفته معك فسينتهي به المطاف مشكّلاً سدًا يعق جريانك. لكن إن تخطّيته حصاةً تلو الأخرى ما إن تظهر لك، فسيظلّ تيّارك دافقًا ومياهك صافيةً بلّوريّة، كأنّما احتكاكها مع كلّ حصاةٍ قد زادها لمعانًا. قد تشعر في لحظةٍ ما بالذنب وبكونك غير جديرٍ بهذه الشفافيّة، وإذ ذاك ستبحثُ عن وسيلةٍ تكدّر بها صفو مياهك. قد تغدو كسولاً وتتمطّى في السهول إلى أن تضلّ طريقك في البراري، وقد يصيبك غرور عظيمٌ فتنحدر إلى جرف هارٍ لتصير شلالاً، أو تدخل أخاديد أفعوانيّةً تقودك إلى تيهٍ أبديّ. قد تقسو روحك فتصير جليدًا، أو تترك لمستك النديّة تتشقّق يبابًا في سراب الصحراء.

رجلٌ يسافر وحيدًا عبر صحراء بتاغونيا، فيصادف على الطريق شابًا منهك القوى، ويقرّر مساعدته، فيقلّه بسيّارته وهو لا يعلم أنّ هذا الشابّ الغامض أميرٌ يعود إلى الأرض بعد زمنٍ طويل؛ وخلال الرحلة تقع أحداث شائقة، ويدور حوار ممتعٌ بين الاثنين هو، في الواقع، تأمّلٌ عميق وشعريّ حول الحياة بتناقضاتها وإشكاليّاتها الأزليّة، حوارٌ بين اليأس والأمل، والشكّ والإيمان، والطفولة والنضج، والقول والفعل .. إلخ.

في (**عودة الأمير الشابّ**) يقدّم لنا الكاتب الأرجنتينيّ **أليخاندرو غييرمو رومرس** رواية مدهشة لاقت نجاحًا هائلا في العالم أجمع، حيث ترجمت إلى ما يقارب ثلاثين لغة، وبيع منها ما يزيد على ثلاثة ملايين ونصف المليون من النسخ.

telegram @t_pdf

ISBN 978-9957-39-326-7



الأهلية
الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2020
الغلاف: ... ® 95297109 7 00962